Qassim University
جامعة القصيم
المجلة العلمية لجامعة القصيم
(مجلة محكمة)

المجلد (٦) – العدد (٢)

مجلة
العلوم العربية والإنسانية

رجب ١٤٣٤هـ – مايو ٢٠١٣م

النشر العلمي والترجمة

مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (٦)، العدد (٢)، ص ص ٥١٧-١٠٧٦ بالعربية، ص ص ١-٥١ بالإنجليزية (رجب ١٤٣٤هـ/ مايو ٢٠١٣)

المحتويات

صفحة

القسم العربي

التسمية بما اقترنت به لواحق الاسم "دراسة صرفية نحوية"
د. يوسف محمود فجال ٥١٧

العدول عن أصل وضع الجملة بالحذف في سورة " المؤمنون " وأثره في المعنى
د. محمد عبدالله هزايمة ٥٦٣

دلالات "ثُمَّ" في القرآن الكريم
د. حسن عبد العاطي محمد عمر ٥٩٩

علم اللغة الجغرافي بين حداثة المصطلح وأصوله لدى العرب
د. عبدالعزيز بن حميد الحميد ٦٦٩

أثر نون التّوكيد في بنية الفعل العربيّ "دراسة في المستوى الصّوتيّ"
د. ريم فرحان عودة المعايطة ٧١٧

من مَظاهِر لَهْجة طَيِّئ في اللَّهْجة القَصِيميّة المعاصرة
د. خالد بن محمد بن سليمان الجمعة ٧٤٣

الروح الدينية تجسّد الحملة الصليبية الأولى
د. عبد المعز بني عيسى ٨٣٧

معوقات التنمية الريفية – وأثرها في ضعف مشاركة المجتمع المحلي "دراسة تطبيقية على منطقة ضرية بالقصيم"
د. أحمد بن محمد الشبعان ٨٧٩

معركة بانوكبيرن عام ١٣١٤م
د. فاطمة عبد اللطيف الشناوى ٩٣٩

واقع العمل التطوعي ومعوقاته وأساليب تنميته واتجاهات الطلاب نحوه بجامعة القصيم بالمملكة العربية السعودية
د. إبراهيم بن عبدالله العبيد ٩٨٧

القسم الإنجليزي

تأثير بعض المتغيرات علي استخدام المرشدين لفنيات المقابلة الإرشادية في العمل الإرشادي في المملكة العربية السعودية (الملخص العربي)
دخيل بن محمد بن حمد البهدل ٢٧

اختيار تقنيات تعليم اللغات: إطار حديث (الملخص العربي)
د. خالد بن محمد أبا الحسن ٥١

مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (٦)، العدد (٢)، ص ص ٥٩٩-٦٦٨، (رجب ١٤٣٤هـ/ مايو ٢٠١٣)

دلالات "ثُمَّ" في القرآن الكريم

د. حسن عبد العاطي محمد عمر
الأستاذ المساعد بكلية اللُّغة العربية والدّراسات الاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة القصيم
ddhassan666@gmail.com

ملخص البحث. الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله، وبعد ...

فهذا بحث بعنوان (دلالات ثم في القرآن الكريم)، وقد ركز على المعاني التي تؤديها (ثم) في القرآن الكريم، وقد توصل إلى أن (ثم) في القرآن الكريم تؤدي ثمانية معانٍ إضافة إلى معناها الذي قرره لها جمهور النحاة، وهو دلالتها على التشريك مع الترتيب والمهلة، وهذه المعاني الإضافية هي:

التراخي في الرتبة، والاستبعاد، والاستمرار، والتقديم، والاستئناف، ومطلق الجمع، أي أنها مثل واو العطف، أو تكون بمعنى (هنالك)، أو زائدة.

وهذه المعاني جميعها فيها خلاف بين المفسرين، وقد حرص البحث على إيراد هذا الخلاف، وختم كل مسألة من مسائله بخاتمة صغيرة رجح فيها ما يخدم المعنى القرآني ولا يتعارض مع اللغة. كما بين البحث التراوح في مقدار المهلة التي تدل عليها عندما تكون على معناها الأصلي.

وقد وقع هذا البحث في ثمانٍ وأربعين صفحة، مشتمل على مقدمة وخاتمة وقائمة بالمراجع التي تناولت هذا الموضوع تناولاً مباشراً، وقد بلغت هذه المراجع ثمانية وثلاثين مرجعاً.

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان من السابقين واللاحقين، وبعد:

فهذا بحث عنوانه: (دلالات "ثُمَّ" في القرآن الكريم)، و(ثم) حرف عطف يدل على ثلاثة معانٍ عند جمهور النحويين، وهي: التشريك في الحكم والترتيب والمهلة[1]، فإذا قلت: جاء زيدٌ ثم عمرٌو، فهذا يدل على أن المجيء قد حصل من زيد وعمرو وأن زيدًا سابق لعمرو في المجيء وأن بين مجيء زيد ومجيء عمرو مهلة، أي فاصل زماني، وبما أنها تدل على هذه المعاني فقد ركّز البحث أولاً في النظر في الفاصل الزماني الذي تدل عليه، هل له ضابط في الحد الأدنى والأعلى أو يأتي على أزمان لا ضابط لحدَّيها. وثانيًا ركَّز على هذه المعاني الثلاثة هل هي دائمًا تتحقق لـ(ثم) أو تتخلف في بعض الآيات.

فالمهلة الزمانية التي تدلُّ عليها (ثم) فقد تراوحت ما بين لحظة يسيرة ومئات السنين فيما علم نهايته البشر وآلاف السنين فيما لم يعلموا نهايته، فاللحظة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ﴾ [الزمر:٢٣]، فالمهلة هنا ربما تكون ثوانيَ أو دقائقَ. ودلت على مئات السنين في قوله: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ [الكهف:١١-١٢]، فمعلوم أن مدة نوم أهل الكهف ثلاثمائة سنة على التاريخ الشمسي. ودلت على آلاف السنين في قوله: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البقرة:٢٨]، فالإحياء للحساب يوم القيامة زمانه مجهول للبشر، والأمم

(١) انظر سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر (المتوفى: ١٨٠هـ) : الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ٤٩٩/١.

السابق لأمة محمد عليه السلام مضى على وفاتها آلاف السنين، بل الرسول صلى الله عليه وسلم مضى على وفاته أكثر من ألف سنة، فدلالة (ثم) الثانية في هذه الآية متفاوتة ما بين الميت الأول والميت الأخير من البشر، فالأولون مضت على وفاتهم آلاف السنين وما زالوا ينتظرون الساعة. وقد وضَّح البحث مقدار المُهَل التي دلت عليها في القرآن الكريم.

ودلالتها على التشريك والترتيب والمهلة قد تخلَّفت في بعض الآيات[٢]، فلا يوجد تشريك في قوله تعالى: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾ [يونس:٥١]، ولا يوجد ترتيب في قوله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر:٦]، فخَلْقُ حوّاء سابق لخلقنا، ولا توجد مهلة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ [فصلت:٣٠]، فالاستقامة هنا حاصلة مع الإيمان مباشرة دون مهلة. وقد تناول البحث هذه الآيات وأمثالها، ووضَّح آراء المفسرين والنحاة فيها، ورجَّح ما يدْعم المعنى وتؤيده الأدلة.

وفي (ثم) أربع لغات: ثُمَّ وهي الأصل، فُمَّ بإبدال الثاء فاء، ثُمَّتْ بتاء التأنيث الساكنة، ثُمَّتَ بتاء التأنيث المتحركة[٣]. ولم ترد من هذه اللغات في القرآن إلاَّ الأولى، وقد وردت في القرآن ثمانيًا وثلاثين وثلاثمائة مرة. ولم ترد في القرآن مسبوقة بحرف من حروف المعاني إلاَّ في موضع واحد وهو قوله تعالى: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾ [يونس:٥١].

---

(٢) انظر ابن هشام، جمال الدين عبد الله بن يوسف الأنصاري (المتوفى: ٧٦١هـ): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، طبعة دار الفكر بيروت، الطبعة السادسة ١٩٨٥م، الصفحات ١٥٨ إلى ١٦١.

(٣) المرادي، الحسن بن قاسم (المتوفى: ٧٤٩هـ): الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل طبعة المكتبة العربية بحلب، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ، ص ٤٣٢.

وقد جاء البحث في عشر مسائلَ، الأولى والثانية منها على أصل (ثم) في الدلالة على التراخي في الزمن، أي حدوث الثاني بعد الأول بمهلة، وأمَّا الثماني الأخريات فقد جاءت على معانٍ أخرى لـ(ثم)، وهي موضوع خلاف بين أهل اللغة، وهذه المعاني هي: دلالتها على التراخي في الرتبة، الاستبعاد، الاستئناف، الدوام والاستمرار، التقديم، ومجيئها بمعنى (هنالك)، وبمعنى واو العطف، ومجيئها زائدة.

وقد ذكر ابن عطية والقرطبي لها معنيين آخرين هما التوبيخ والتعجيب، الأول ذكره ابن عطية والثاني القرطبي، ولم أورد هذين المعنيين في سرد المسائل لأنها مسميان آخران لمعنى الاستبعاد، فاكتفيت بذكرهما معه.

وقد تم إيراد أقوال النحاة المختلفة في كل مسألة من هذه المسائل، وفي آخر كل مسألة جاءت خلاصة تشير إلى أرجح الأقوال بناء على ما يحقق المعنى ولا يتعارض مع اللغة، وفي الغالب يتفق الترجيح مع عنوان المسألة، أو لا يأباه، ولم يتخلف ذلك إلا في مسألة زيادة (ثم)؛ وذلك لأن زيادتها لا تدعمها شواهد وأدلة من اللغة العربية.

المسألة الأولى: دلالتها على مدَّة محددة

جاءت (ثم) على أصلها في الدلالة على التراخي في الزمن في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وجاء هذا التراخي متفاوتًا ما بين الزمن اليسير وآلاف السنين، وجاءت نهايته على نوعين، نوع معلوم ومعروف للناس، وآخر اختصَّ بعلمه الله تعالى، لكنه واقع إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة.

وهذه المسألة ستكون في النوع الأول، وهو دلالتها على مدَّة محددة النهاية، وهذه المدة تراوحت ما بين الجزء من اليوم والليلة، والأيام دون السنة، والسنوات التي تصل إلى المئات، ويمكن توضيحها على النحو التالي:

أولاً: دلالتها على يوم وليلة أو جزء من أحدهما

١- دلالتها على يوم وليلة: دلت (ثم) على التراخي لمدّة يوم وليلة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة:٥٥-٥٦]، حيث أمات الله بني إسرائيل الذين ذهبوا مع نبيه موسى للميقات عندما طلبوا رؤيته جهرة لمدة يوم وليلة، ثم بعثهم من الموت بعد ذلك، قال الزمخشري: ((والصَّاعِقَةُ ما صعقهم، أي أماتهم. قيل: نار وقعت من السماء فأحرقتهم. وقيل: صيحة جاءت من السماء. وقيل: أرسل اللَّه جنودا سمعوا بخسها فخروا صعقين ميتين يومًا وليلة))[٤]، وقال الرازي: ((خروا صعقين ميتين يومًا وليلة))[٥].

٢- دلالتها على يوم أو جزء منه: دلت على يوم تام في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [البقرة:١٨٧]، فالصيام يكون من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فمدته يوم تام. ودلت على جزء من اليوم في قوله تعالى: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٤]، فقطَّع فرعون أيدي السحرة وأرجلهم لَّما آمنوا ثم صلبهم في النهار بعد شروق الشمس وقبل غروبها، قال ابن عطية: ((وقال ابن عباس وغيره فيهم: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء))[٦]، وحدد ابن عاشور هذه المدة

---

(٤) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، طبعة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ، ١/١٤٢.

(٥) الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر التميمي (المتوفى: ٦٠٦هـ): مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، طبعة دار التراث العربي ببيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ، ٣/٥٢١.

(٦) ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢هـ): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر دار الكتب العلمية ببيروت، ٢/٤٤٠.

بزمن قصير من النهار، وهو مدة كيّ مكان القطع واندماله، قال: ((ثم" دالة على الترتيب والمهلة، ولعل المهلة قصد منها مدة كي واندمال موضع القطع، وهذا هو المناسب لظاهر قوله: أجمعين المفيد أن الصلب ينالهم كلهم))[٧].

٣- دلالتها على ليلة أو جزء منها وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة:١٩٨-١٩٩]، وقبل توضيح المدة الزمانية لـ(ثم) في هذه الآية لابد من الإشارة إلى اختلاف أهل التأويل في المأمورين بالإفاضة، وما هي الإفاضة المقصودة، فذهبت طائفة إلى أنهم هم قريش ومن ولدتهم، وأن الإفاضة المقصودة هي الإفاضة الأولى من عرفة إلى مزدلفة في مساء يوم عرفة؛ وذلك لأنهم كانوا يفيضون مع الناس من عرفة، قال الطبري: ((قال بعضهم: المعني بقوله: (ثم أفيضوا)، قريش ومن ولدته قريش، الذين كانوا يسمون في الجاهلية الحُمْس، أمروا في الإسلام أن يفيضوا من عرفات، وهي التي أفاض منها سائر الناس غير الحُمْس. وذلك أن قريشًا ومن ولدته قريش، كانوا يقولون: لا نخرج من الحرم. فكانوا لا يشهدون موقف الناس بعرفة معهم، فأمرهم الله بالوقوف معهم))[٨]، وذهب آخرون إلى أن المقصودين هم كافة الناس، وأن الإفاضة هي الإفاضة الثانية من منطقة جمع بمزدلفة إلى منى في فجر يوم العيد؛ لأنها جاءت بعد الذكر عند المشعر الحرام، والمشعر الحرام بمزدلفة، قال أبو حيان: ((هذه الإفاضة من جمع إلى منى، والمخاطبون بقوله ثم أفيضوا جميع المسلمين، وقد

(٧) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ): التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، طبعة الدار التونسية للنشر بتونس ١٩٨٤هـ، ٩/٥٥.

(٨) الطبري، محمد بن جرير (المتوفى: ٣١٠هـ): جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، ٤/١٨٤.

قال بهذا: الضحاك، وقوم معه، ورجحه الطبري، وهو يقتضيه ظاهر القرآن))[٩].

وعلى القول الثاني - وهو الراجح- (ثم) على أصلها في الدلالة على الترتيب في الزمان، ومدة زمانها ليلة أو جزئًا منها؛ لأن الذكر غير مقيد بزمن محدد، حيث يبدأ زمنه بجمع صلاتي المغرب والعشاء ويستمر إلى ما بعد صلاة الفجر، ثم يتجهز المسلمون بعد ذلك ويفيضون إلى منى. ودلالتها على جزء من الليلة في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:٥-٩]، قيل شديد القوى جبريل، وقد حصل الدنو والتدلي منه في المعراج وكان في جزء يسير من الليل. قال البيضاوي: ((ثُمَّ دَنا من النبي عليه الصلاة والسلام. فَتَدَلَّى فتعلق به وهو تمثيل لعروجه بالرسول. وقيل ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا من الرسول فيكون إشعارًا بأنه عرج به غير منفصل عن محله تقريرًا لشدة قوته))[١٠].

وأحيانًا ترد (ثم) لتدل على وقت محدد يجوز أن يكون جزءًا من الليل أو النهار، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣]، أي أن الجلود ترجع إلى حالة اللين بعد القشعريرة، وهذا وما قبله يحدث في جزء يسير من اليوم أو الليلة أو منهما، قال ابن عاشور: ((وأما لين الجلود عقب تلك القشعريرة فهو رجوع الجلود إلى حالتها السابقة قبل اقشعرارها، وذلك قد يحصل عن تناس أو تشاغل بعد تلك

(٩) أبو حيان محمد بن يوسف (المتوفى: ٧٤٥هـ): البحر المحيط في التفسير، تحقيق صدقي محمد جميل، طبعة دار الفكر ببيروت ١٤٢٠هـ، ٣٠١/٢.

(١٠) البيضاوي، عبد الله بن عمر الشيرازي (المتوفى: ٦٨٥هـ): أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر دار إحياء التراث العربي ببيروت، ١٥٧/٥.

الروعة، فعطف عليه لين القلوب ليعلم أنه لين خاص ناشئ عن اطمئنان القلوب بالذكر كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، وليس مجرد رجوع الجلود إلى حالتها التي كانت قبل القشعريرة. ولم يكتف بذكر لين القلوب عن لين الجلود لأنه قصد أن لين القلوب أفعمها حتى ظهر أثره على ظاهر الجلود))[١١].

ثانيًا: دلالتها على أيام أقل من السنة

جاءت (ثم) في القرآن دالة على أيام معدودة معلومة النهاية، بعضها أكثر من شهر وبعضها أقل منه، فأكثر من شهر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج:٥]، فتراخي العلقة عن النطفة أربعون يومًا، وتراخي المضغة عن العلقة أربعون يومًا أيضًا، وكذا تراخي التخليق، كما جاء في الحديث، قال القرطبي: ((وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح))[١٢]، وأما الأجل المسمى قبل الولادة فيبدأ من ستة أشهر ويستمر إلى تسعة أشهر وتسعة أيام، فكل هذه الفترة صالحة لولادة الأطفال حيين، فإذن (ثم) الأخيرة تدل على تراخٍ يتراوح من ستة أشهر إلى تسعة، قال الرازي: ((والأجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة وهو آخر ستة

---

(١١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٣٩٠/٢٣.

(١٢) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (المتوفى: ٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفش، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ، ٧/١٢.

أشهر، أو تسعة))[١٣]. وأقل من شهر قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة:٥١]، فقد اتخذوا العجل بعد عشرين يومًا من ذهاب موسى عليه السلام إلى الميعاد، قال الطبري: ((ثم اتخذتم في أيام مواعدة موسى العجل إلهًا، من بعد أن فارقكم موسى متوجهًا إلى الموعد ... وعدت بنو إسرائيل موعد موسى، فعدوا الليلة يومًا واليوم يومًا، فلما كان تمام العشرين، خرج لهم العجل. فلما رأوه قال لهم السامري: هذا إلهكم وإله موسى فنسي. يقول: ترك موسى إلهه ههنا وذهب يطلبه. فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخور ويمشي))[١٤].

ثالثًا: دلالتها على أكثر من سنة

جاءت (ثم) في القرآن دالة على مدة طويلة محددة النهاية، وتراوحت هذه المدة من سبع سنوات إلى تسع وثلاث مائة، وذلك في قوله: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ [الكهف:١١-١٢]، فمدة الضرب على آذانهم ثلاثمائة سنة بالتقويم الشمسي وهو التاريخ الميلادي، وتسع وثلاثمائة بالتقويم القمري وهو التاريخ الهجري، وقد ورد تفصيل ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥]، فتراخي (ثم) ههنا ثلاثمائة سنة أو أكثر، ودلت على التراخي لمدة مائة عام في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ودلت على التراخي لمدة أربعين سنة أو ثمانٍ وعشرين في قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ

(١٣) الرازي: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ٢٣/٢٠٥.

(١٤) الطبري: جامع البيان، ٢/٦٣، ٦٥.

أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٤٠]، فإن كان المقصود بالمجيء إلى الرسالة بعد إلقائه في اليمِّ فمدته أربعون سنة، وإن بعد مكثه في مدين بعد قتله القبطي فمدته ثمانٍ وعشرون سنة؛ وذلك لأنه خرج من مصر وعمره اثنتا عشرة سنة، ومكث في مدين مع شعيب ثمانيًا وعشرين سنة، قال الزمخشري: ((قتله وهو ابن اثنتي عشرة سنة))[١٥]، وقال الثعلبي: ((قال وهب: لبث عند شعيب ثمانيًا وعشرين سنة، عشر سنين منها مهر امرأته صفيرا بنت شعيب وثماني عشرة سنة أقام عنده حتى ولد له))[١٦]، ودلت على التراخي لمدة سبع سنوات في قوله تعالى: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ [يوسف: ٤٧-٤٨].

وخلاصة هذه المسألة: أن دلالة (ثم) فيها على التراخي في الزمن ظاهرة، فهي على أصلها؛ فلذا لم يوجد فيها خلاف بيِّن عند النحاة والمفسرين.

المسألة الثانية: دلالتها على مدة طويلة نهايتها مجهولة

وردت (ثم) في مواضع كثيرة في القرآن الكريم لتدل على التراخي في الزمن، وهذا التراخي قد تكون مدته طويلة في الغالب تستغرق سنين كثيرة، لكنها مجهولة النهاية للبشر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا

(١٥) الزمخشري: الكشاف، ٣/٦٤.

(١٦) الثعلبي، أحمد بن محمد، (المتوفى: ٤٢٧هـ): الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، ٦/٢٤٤.

﴿فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨]، فهذه الآية تتحدث عن حياتين وميتتين كما قال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١]، فالموتة الأولى هي التي تسبق نفخ الروح في الإنسان سواء كان في العدم أم في الرحم، والثانية فهي التي تحصل لكل إنسان في الحياة الدنيا، وأما الحياتان فالأولى هي التي تحدث بنفخ الروح في الإنسان بعد الشهور الأولى من الحمل، والثانية هي حياة البعث ليوم الحساب، قال الألوسي: ((المروي عن ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد رضي الله تعالى عنهم أن المراد بالموت الأول العدم السابق، والإحياء الأول الخلق، والموت الثاني المعهود في الدار الدنيا، والحياة الثانية البعث للقيامة، واختاره بعض المحققين ... واختار آخرون أن كونهم أمواتًا هو من وقت استقرارهم نطفًا في الأرحام إلى تمام الأطوار بعدها، وأن الحياة الأولى نفخ الروح بعد تلك الأطوار، والإماتة- هي المعهودة- والإحياء بعدها- هو البعث- يوم ينفخ في الصور ولعله أقرب من الأول))[١٧].

إذا نظرت إلى دلالة (ثم) الزمانية في هذه الآية تجدها تدل على زمان طويل، وهو واضح في ورودها الأول والثاني، ففي الأول (﴿فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾) تدل على عمر الإنسان، وعمر الإنسان قد يكون لحظة أو سنين طويلة، والغالب فيه أن يكون سنين طويلة؛ لأن أعمار الأمة المحمدية الغالب فيها أن تتراوح ما بين الستين والسبعين، وهي أقصر الأمم أعمارًا، قال الرسول (ص): ((أعمار أمتي ما بين

(١٧) الألوسي، محمود بن عبد الله (المتوفى: ١٢٧٠): روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، تحقيق علي عبد البارئ عطية، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى١٤١٥هـ، ١/٢١٥.

الستين إلى السبعين))[١٨]، وعمر الإنسان في غيرها من الأمم أحيانًا يزيد على ألف سنة. وفي الثاني (يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) تدل على فترة البرزخ التي تنتهي بالبعث للحساب، وهي الفترة التي تفصل حياة الدنيا عن حياة الآخرة، ولا يعرف نهايتها إلا الله، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وهي فترة متفاوتة في الطول بين الميت الأول من البشر والأخير، على أن أقصرها أربعون سنة، وهي الفترة بين النفختين، نفحة الصور الأولى التي يموت بها جميع الأحياء من البشر، ثم الثانية التي يحيون بها، قال (ص): ((بين النفختين أربعون))[١٩]، ذكرها من غير تمييز، بيد أن أصحابه كانوا يرون أنه سنة، قال الطبري: ((قال أصحابه: فما سألناه عن ذلك، ولا زادنا على ذلك، غير أنهم كانوا يرون من رأيهم أنها أربعون سنة))[٢٠]. وأما ورودها الثالث (يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فالفترة الزمانية فيه تحتاج إلى توضيح؛ لأن الرجوع إلى الله يحصل عقب البعث من دون تراخٍ، ولذلك خرجت هذه الآية على وجوه:

الأول: أن يكون الإحياء مقصودًا به حياة القبر للسؤال، والرجوع البعث للحساب، وهذان بينهما فاصل زمني طويل أقله أربعون سنة كما تقدم آنفًا، وعلى هذا تكون دلالة (ثم) على التراخي باقية من غير تأويل، قال الزمخشري: ((فإن قلت: ما المراد بالإحياء الثاني؟ قلت: يجوز أن يراد به الإحياء في القبر، وبالرجوع:

---

(١٨) الترمذي، محمد بن عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ): سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الثانية ١٩٧٥م، الحديث رقم ٣٥٥٠، الجزء الخامس ص ٥٥٣.

(١٩) البخاري، محمد بن إسماعيل (المتوفى:٢٥٦هـ): صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، طبعة دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، الحديث رقم ٤٩٣٥، الجزء السادس ص ١٢٦.

(٢٠) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ٣٣٤/٢١.

النشور))[٢١]، وقال الرازي: ((فلقائل أن يقول: إن الله تعالى ذكر حياة القبر في هذه الآية. لأن قوله في يحييكم ليس هو الحياة الدائمة وإلا لم صح أن يقول: ثم إليه ترجعون لأن كلمة ثم تقتضي التراخي، والرجوع إلى الله تعالى حاصل عقب الحياة الدائمة من غير تراخ))[٢٢].

الثاني: أن يكون الإحياء مقصودًا به حياة النشور كما تقدم في بداية المسألة، وأن الرجوع إلى الله مبني على حذف مضاف، والضمير في (إليه) راجع إلى الله تبارك وتعالى كالضمائر السابقة له، والتقدير: ترجعون إلى جزاء الله، قال أبو حيان: ((والظاهر في قوله تعالى: ثم إليه ترجعون أن الهاء عائدة على الله سبحانه وتعالى، لأن الضمائر السابقة عائدة عليه تعالى، ويكون ذلك على حذف مضاف، أي إلى جزائه من ثواب أو عقاب))[٢٣]. وعلى هذا تدل (ثم) على التراخي في الزمن لطول يوم الحساب، إذ مقداره خمسون ألف سنة، كما قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، وقد فسرت الآية على ذلك، قال الطبري: ((عن ابن عباس، في قوله: (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)، فهذا يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة))[٢٤]. وذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير في (إليه) عائد إلى الإحياء الأول، والمعنى أحياكم في الدنيا ابتداء ثم في النهاية ترجعون إليه في الآخرة كما بدأكم، قال أبو حيان: ((وقيل: عائدة على الإحياء المدلول عليه بقوله: فأحياكم. وشرح هذا أنكم ترجعون بعد الحياة الثانية إلى الحال التي كنتم عليها في ابتداء الحياة الأولى، من

(٢١) الزمخشري: الكشاف، ١/١٢٢.

(٢٢) الرازي: مفاتيح الغيب(التفسير الكبير) ، ٢/٣٧٧.

(٢٣) أبو حيان: البحر المحيط، ١/٢١٣.

(٢٤) الطبري: جامع البيان ٢٣/٦٠٢.

كونكم لا تملكون لأنفسكم شيئًا))[٢٥]. ولابن عاشور توجيه قريب من هذا، وهو أن خلقهم ذهاب من عند الله، وحشرهم عودة إلى الله تعالى، قال: ((وقوله: ثم إليه ترجعون، أي يكون رجوعكم إليه، شبه الحضور للحساب برجوع السائر إلى منزله باعتبار أن الله خلق الخلق فكأنهم صدروا من حضرته، فإذا أحياهم بعد الموت فكأنهم أرجعهم إليه، وهذا إثبات للحشر والجزاء))[٢٦]. وعلى هذين التوجيهين دلالة (ثم) في التراخي لا تحتاج إلى تأويل؛ لأن الفاصل الزمني بين الحياتين طويل جدًا أقله أربعون سنة كما تقدم.

الثالث: ذهب إليه المجسمة فجعلوا دلالة (ثم) مكانية، حيث يخرج الأموات من قبورهم في شتى أصقاع الأرض ثم يتجهون إلى المكان الذي يوجد فيه الله تعالى للحساب، قال الماوردي: ((وفي قوله: "ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" تأويلان: أحدهما: إلى الموضع الذي يتولى الله الحكم بينكم. والثاني: إلى المجازاة على الأعمال))[٢٧]، وكأنهم أيدوا توجيههم هذا بقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥١]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣]، وهذا مخالف لمذهب أهل السنة، قال الرازي: ((تمسَّك الْمُجَسِّمَة بقوله تعالى: ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ على أنه تعالى في مكان وهذا ضعيف، والمراد أنهم إلى حكمه يرجعون))[٢٨]، وقال أبو حيان: ((استدلت الْمُجَسِّمَة بِقَوْلِهِ: ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُون، على أَنَّه تعالى في مكان

---

(٢٥) أبو حيان: البحر المحيط، ٢١٣/١.

(٢٦) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٣٧٧/١.

(٢٧) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي (المتوفى: ٤٥٠هـ): النكت والعيون، تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت، ٩٢/١.

(٢٨) الرازي: مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، ٣٧٨/٢.

ولا حجّة لهم في ذلك))[٢٩]. فعلى توجيههم هذا –بالرغم من ضعفه- تدل (ثم) على التراخي في الأمكنة؛ لأن الأرض متسعة، وفي كل جزء منها أموات، وكل هؤلاء الأموات - مع بعد المسافات بينهم- سيجتمعون في مكان واحد بعد حياتهم الثانية عند الله تبارك وتعالى لأجل الحساب.

وخلاصة هذه المسألة: أن (ثم) دلت فيها على التراخي في الزمن في أرجح الأقوال، بل تراخٍ طويل في الغالب، ومتفاوت في المدة، وغير معروفة نهايته للبشر، وهي على خلاف الفاء السابقة لها في قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾، فإنها تدل على التعقيب من غير تراخٍ، قال الزمخشري: ((فإن قلت: لم كان العطف الأوّل بالفاء والإعقاب بثم؟ قلت: لأنّ الإحياء الأوّل قد تعقب الموت بغير تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء. والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت- إن أريد به النشور- تراخيًا ظاهرًا. وإن أريد به إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه والرجوع إلى الجزاء أيضًا متراخٍ عن النشور))[٣٠].

المسألة الثالثة: دلالتها على التراخي في الرتبة

وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[البقرة:٢٩]، وقبل مناقشة دلالة (ثم) في هذه الآية فلابد من الإجابة عن سؤالين؛ لأن دلالتها مرتبطة بالإجابة عنهما، والسؤالان هما: ما معنى الاستواء؟ وأيهما أسبق في الخلق الأرض أم السماء؟

---

(٢٩) أبو حيان: البحر المحيط، ٢١٣/١.

(٣٠) الزمخشري: الكشاف، ١٢٢/١.

فالاستواء له معانٍ كثيرة في اللغة، عدها بعضهم سبعة[٣١]، أشهرها معنيان: القصد والعلو، قال الأخفش: ((وأما قوله (اسْتَوى إلى السماء) فإن ذلك لم يكن من الله تبارك وتعالى لتحول، ولكنه يعني فعله كما تقول: "كان الخَلِيفَة في أَهْلِ العراق يوليهم ثم تحوّل إلى أَهلِ الشام" إنما تريد تحول فعله))[٣٢]، وقال الزجاج: ((قوله عزَّ وجلَّ: (ثُمَّ اسْتَوى إلَىَ السَّمَاءِ)، فيه قولان: قال بعضهم: (اسْتَوى إلَىَ السَّمَاءِ)، عمد وقصد إلى السماءِ. كما تقول قد فرغ الأمير من بلد كذا وكذا، ثم استوى إلى بلد كذا، معناه: قصد بالاستواءِ إليه، وقد قيل أيضًا استوى، أي صعد أمره إلى السماء. وهذا قول ابن عباس))[٣٣]. ومعنى القصد التحول من خلق الأرض إلى خلق السماء، وقد اختار الزمخشري هذا التوجيه، قال: ((قوله: (ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ) ، أي قصد إليها بإرادته ومشيئته بعد خلق ما في الأرض، من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر))[٣٤]، وأما العلو فقد وجه على معنيين: الأول على حذف مضاف، أي علا أمره إلى السماء بعد الأرض، وهو على هذا مثل القصد في المعنى. والثاني أنه تعالى علا على السماوات بنفسه، أي إن عرشه فوق السماوات، كما في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس:٣]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢]،

---

(٣١) أبو حيان: البحر المحيط، ٢١٧/١.

(٣٢) الأخفش، أبو الحسن المجاشعي المعروف بالأخفش الأوسط (المتوفى: ٢١٥هـ): معاني القرآن، تحقيق الدكتورة هدى محمود قراعة، طبعة مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤١١هـ، ٦٢/١.

(٣٣) الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري (المتوفى: ٣١١هـ): معاني القرآن وإعرابه، طبعة عالم الكتب ببيروت، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ١٠٧/١.

(٣٤) الزمخشري: الكشاف، ١٢٣/١.

وقوله : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[السجدة:٤]، وقوله: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت: ٩ – ١١]، وقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[الحديد: ٤. فهذه الآيات كلها تدل على أن الاستواء كان بعد خلق السماوات والأرض، وأنه كان على العرش. وقد اختار الطبري توجيه العلو، قال: ((وأوْلى المعاني بقول الله جل ثناؤه: "ثم استوى إلى السماء فسوَّاهن"، علا عليهن وارتفع، فدبرهنّ بقدرته، وخلقهنّ سبع سموات))[٣٥]. وقال القرطبي: ((الاستواء في اللغة: الارتفاع والعلو على الشيء، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقال: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ [الزخرف: ١٣]، وقال الشَّاعر:

فَأَوْرَدْتُهُمْ مَاءَ بِفَيْفَاءَ قَفْرَةٍ وَقَدْ حَلَّقَ النَّجْمُ الْيَمَانِيُّ فَاسْتَوى

أي ارتفع وعلا، واستوت الشمس على رأسي واستوت الطير على قمة رأسي، بمعنى علا))[٣٦].

وتفسير الاستواء مشكل لأنه يؤدي إلى تجسيد الله وتشبيهه بمخلوقاته –تعالى الله عن ذلك- ، والناس فيه على اختلاف، قال القرطبي: ((هذه الآية من المشكلات، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه قال بعضهم: نقرؤها ونؤمن بها ولا

(٣٥) الطبري: جامع البيان ١/٤٣٠.

(٣٦) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١/٢٥٤.

نفسرها، وذهب إليه كثير من الأئمة، وهذا كما روي عن مالك رحمه الله أن رجلا سأله عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥، قال مالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأراك رجل سوء! أخرجوه. وقال بعضهم: نقرؤها ونفسرها على ما يحتمله ظاهر اللغة. وهذا قول المشبهة. وقال بعضهم: نقرؤها ونتأولها ونحيل حملها على ظاهرها))[٣٧].

وأما السؤال الثاني ففي إجابته اختلاف على ثلاثة مذاهب:

أحدها: أن الأرض بما فيها خلقت قبل السماء، ودليله هذه الآية وآيات فصلت: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصلت: ٩-١١]، فتقدم ذكر خلق الأرض وأقواتها على خلق السماء، وجملة الخلق في ستة أيام، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾، حيث خلق الأرض في يومين، وخلق جبالها وأقواتها وبركتها في يومين آخرين، ثم خلق السماوات في يومين، قال الطبري: ((عن ابن عباس - وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: (هو الذي خلقَ لكم ما في الأرض جميعًا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات). قال: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئًا غير ما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخانًا، فارتفع فوق الماء فسما عليه، فسماه سماء. ثم أيبس الماء فجعله أرضًا واحدة، ثم فتقها فجعل سبع أرضين في يومين - في الأحد والاثنين، ... وخلق الجبالَ فيها، وأقواتَ أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين، في الثلاثاء

(٣٧) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١/٢٥٤.

والأربعاء، وذلك حين يقول: (أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا) يقول: أنبت شجرها (وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا) يقول: أقواتها لأهلها (فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ) يقول: قل لمن يسألك: هكذا الأمر (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ)، وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين - في الخميس والجمعة ... فلما فرغ من خلق ما أحبّ، استوى على العرش))[٣٨].

الثاني: أن السماء خلقت قبل الأرض، ودليله آيات سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات:٢٧-٣٠]، فأشارت إلى أن خلق الأرض بعد السماء، ففسروا (دحاها) بمعنى خلقها، فقد ذهب مقاتل إلى إن الاستواء على العرش كان قبل خلق السماء والأرض، وأن الله خلق السماء أولاً، ثم خلق الأرض ثانيًا، قال: ((أما قوله: أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ إلى قوله ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ، ففيها تقديم: أي وكان استوى إلى السماء قبل ذلك.والسماء خلقت قبل الأرض، وذلك قوله: أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقًا، كلاهما كانتا ماء ففتقهما الله، فأبان بعضهما من بعض، وخرج البخار من الماء كشبه الدخان، فخلق سبع سموات منه في يومين قبل خلق الأرض، وكان موضع الكعبة زبدة على ظهر الماء، فخلق الأرض بعد ذلك فبسطها من تحت الكعبة، فذلك قوله:

(٣٨) الطبري: جامع البيان ١/ ٤٣٥، ٤٣٦.

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها يعنى بعد خلق السموات، دحاها يعنى بسطها من تحت الكعبة))[٣٩].

الثالث: أن جرم الأرض خلق قبل السماء، لكن دحوها تم بعد خلق السماء، ودليله مجموع الآيتين: (ثم استوى إلى السماء)، و(بعد ذلك دحاها)، حيث أشارت الأولى إلى خلق السماء بعد الأرض، والثانية إلى دحو الأرض بعد خلق السماء، وفسر الدحو هنا بمعنى البسط، قال الزمخشري: ((جرم الأرض تقدم خلقه خلق السماء، وأمّا دحوها فمتأخر. وعن الحسن: خلق اللّه الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر، عليها دخان ملتزق بها، ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات، وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض، فذلك قوله: (كانَتا رَتْقًا)، وهو الالتزاق))[٤٠].

وأما دلالة (ثم) في هذه الآية ففيها أقوال وفاقًا للأقوال في تفسير الاستواء وخلق السماء والأرض، فقد خُرِّجت على وجوه:

الأول: أنها تدل على المهلة في الرتبة، أي أن ما بعدها أعظم درجة مما قبلها، قال الزمخشري: (("ثم" ههنا لما بين الخلقين من التفاوت وفضل خلق السماوات على خلق الأرض، لا للتراخي في الوقت))[٤١]، وقال السمين الحلبي: ((أصل "ثُمَّ" أن

(٣٩) مقاتل بن سليمان الأزدي البلخى (المتوفى:١٥٠هـ): تفسير مقاتل، تحقيق عبد الله محمود شحاته، طبعة دار إحياء التراث ببيروت، الطبعة الأولى١٤٢٣هـ، ١٠١/٥.

(٤٠) الزمخشري: الكشاف، ١٢٤/١.

(٤١) الزمخشري: الكشاف، ١٢٣/١.

تقتضيَ تراخيًا زمانيًا، ولا زمانَ هنا، فقيل: إشارةٌ إلى التراخي بين رتبتي خَلْقِ الأرض والسماء))[٤٢].

الثاني: أنها على أصلها في الدلالة على الترتيب والمهلة في الزمان؛ لأن بين خلق السماء والأرض تم خلق الجبال والأقوات والبركة، قال أبو حيان: ((وقيل لما كان بين خلق الأرض والسماء أعمال من جعل الرواسي والبركة فيها وتقدير الأقوات عطف بـ(ثم)، إذ بين خلق الأرض والاستواء تراخ))[٤٣]. وهذا يوافق قول من جعل خلق الأرض ودحوها قبل خلق السماء.

الثالث: أنها تدل على التقديم، أي أن ما بعدها سابق لما قبلها، قال تاج القراء: (("ثم" يأتي مع الجملة، دالاً على التقديم، نحو قوله، : (ثُمَّ اهْتَدَى)، (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) ، ويكون (ثم) متعلقًا بالإخبار، أي ثم أخبركم بأنه قبل ذلك استوى إلى السماء))[٤٤]. وهذا يوافق قول من جعل خلق السماء سابقًا لخلق الأرض، لكنه يخالف دلالة (ثم) عند جمهور النحاة.

الرابع: أنها تدل على الترتيب مع التعقيب من غير مهلة مثل الفاء، قال مكي: ((فإنما دخلت " ثمَّ " في قوله: {ثُمَّ استوى} بمعنى القصد لخلق ما أراد أن يخلق على ما تقدم في علمه قبل، بلا أمد))[٤٥]، وقال الرازي: ((قوله: ثم استوى إلى السماء،

---

(٤٢) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف (المتوفى: ٧٥٦هـ) : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، طبعة دار القلم بدمشق، ٢٤٢/١.

(٤٣) أبو حيان: البحر المحيط، ٢١٧/١،٢١٦.

(٤٤) تاج القراء، محمود بن حمزة بن نصر، (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ): غرائب التفسير وعجائب التأويل، طبعة دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة، ومؤسسة علوم القرآن ببيروت، ١٠٤٠/٢.

(٤٥) مكي بن أبي طالب، (المتوفى: ٤٢٧هـ): الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، المحقق : مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث =العلمي – جامعة الشارقة، بإشراف أ.د : الشاهد البوشيخي، الناشر : جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى١٤٢٩هـ، ٢٠٩/١.

أي خلق بعد الأرض السماء، ولم يجعل بينهما زمانا ولم يقصد شيئا آخر بعد خلقه الأرض))[٤٦]. وهذا يوافق قول من فسر الاستواء بالقصد، لكنه أيضًا يخالف جمهور النحاة.

الخامس: أنها تدل على تعديد الأشياء، قال النيسابوري: ((يقال (ثم) ليس للترتيب ههنا، وإنما هو على جهة تعديد النعم. مثاله: أن تقول لغيرك: ألست قد أعطيتك نعما عظيمة، ثم رفعت قدرك، ثم دفعت عنك الخصوم؟ ولعل بعض ما أخرته في الذكر مقدم في الوقوع))[٤٧]. وهذا قريب من الوجه الأول.

السادس: أنها تدل على التراخي في المكان، أي أن ما بعدها متأخر في المكان عما قبلها، وهذا يوافق قول من فسر الاستواء بالعلو الحسي، حيث جعلوه العلو على العرش، وقد ورد في الحديث أن المسافة بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء مثل ذلك، وبين السماء السابعة والعرش مثل ذلك كله، قال أبو الشيخ الأصبهاني: ((عن عبد الله رضي الله عنه، قال: «إن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، ونضد كل سماء - يعني غلظه- خمسمائة عام، وما بين السماء السابعة وبين الكرسي مسيرة خمسمائة عام، وما بين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله تبارك وتعالى فوق العرش))[٤٨]، وقال السيوطي: ((عَن أبي ذَر قَالَ قَالَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: مَا بَين السَّمَاء وَالْأَرْض مسيرَة خَمْسمِائَة عَام،

(٤٦) الرازي: مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، ٢/٣٨٠.

(٤٧) النيسابوري، الحسن بن محمد القمي (المتوفى: ٨٥٠هـ): غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق الشيخ زكريا عميرات، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى١٤١٦هـ، ١/٢١١.

(٤٨) أبِو الشيخ الأصبهاني، عبد الله بن محمد (المتوفى: ٣٦٩هـ): العظمة، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس، الناشر دار العاصمة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، ٢/٥٦٥.

كَذَلِك إِلَى السَّمَاء السَّابِعَة، والأرضون مثل ذَلِك، وَمَا بَين السَّمَاء السَّابِعَة إِلَى الْعَرْش مثل جَمِيع ذَلِك))[٤٩].

وخلاصة هذه المسألة: لعل الراجح من الوجوه السابقة الوجه الأول، وهو أن (ثم) للتراخي في الرتبة؛ لأنه لا يتناقض مع خلق السماء قبل الأرض، أو خلق الأرض وما فيها قبل السماء، وذلك لأن السماء إن كانت مخلوقة قبل الأرض فـ(ثم) للتراخي الرُّتْبي لا غير، وإن كانت الأرض مخلوقة قبل السماء، فإن (ثم) تدل على التراخي الرُّتْبي أيضًا مع دلالتها على التراخي الزمني، كما أنها على التوجيه نفسه تستوعب معنى الاستواء إن كان للقصد أو للعلو. وللتراخي الرتبي في القرآن الكريم أمثلة واضحة في توجيهها لا تحتاج إلى تأويل، منها قوله تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البلد: ١١-١٧]، فعطف بـ(ثم) الإيمان على الأعمال الصالحة من عتق وإطعام، وشرط قبول الأعمال الصالحة عند الله أن يسبقها إيمان صاحبها، قال الرازي: ((فإنه إن لم يكن منهم لم ينتفع بشيء من هذه الطاعات، ولا مقتحما للعقبة))[٥٠]، وبناء على هذا فإن (ثم) في هذه الآية لا تدل على التراخي في الزمن، وإنما تدل على التراخي في الرتبة، قال الزمخشري: ((ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا جاء بثم لتراخى الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الوقت، لأنّ الإيمان هو السابق المقدّم على غيره، ولا يثبت عمل صالح إلا به))[٥١]. ومثل هذه

(٤٩) السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى: ٩١١هـ): الدر المنثور في التفسير بالمأثور، طبعة دار الفكر ببيروت، ١/١٠٨.

(٥٠) الرازي: مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، ٣١/١٧٠.

(٥١) الزمخشري: الكشاف ٤/٧٥٧.

الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢]، فالهداية سابقة للغفران؛ لأن الغفران لا يكون إلا للمهتدين، وكذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنون:١٤]، فمرحلة الإنشاء –وهي نفخ الروح على أرجح الأقوال- تالية لما قبلها من غير تراخٍ، لكن عطفت بـ(ثم) للدلالة على فضلها وعظم رتبتها على المراحل السابقة لها، قال الرازي: ((وهذا تصريح بأن ما يتعلق بالروح جنس مغاير لما سبق ذكره من التغيرات الواقعة في الأحوال الجسمانية، وذلك يدل على أن الروح شيء مغاير للبدن))[٥٢]، وقال ابن عاشور: ((وللإشارة إلى التفاوت الرتبي بين الخلقين عطف هذا الإنشاء بـ(ثُمَّ) الدالة على أصل الترتيب في عطف الجمل بِـ"ثُمَّ"))[٥٣].

ويدخل في الترتيب الرُّتْبي الآيات التي وردت مكررة بـ(ثم) مثل قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر:٣- ٤]، قال الزمخشري: ((و(ثُمَّ) دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأوّل وأشد، كما تقول للمنصوح: أقول لك ثم أقول لك: لا تفعل))[٥٤]، وقال البيضاوي: ((ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُون تكرير للتأكيد، وفي (ثم) دلالة على أن الثاني أبلغ من الأول))[٥٥]، وقال ابن عاشور: ((أكد الزجر والوعيد بقوله: ثم كلا سوف تعلمون، فعطف عطفاً لفظياً بحرف التراخي للإشارة إلى تراخي رتبة هذا الزجر والوعيد عن رتبة الزجر والوعيد

(٥٢) الرازي: مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، ٢١/٤٠٤، ٤٠٥.

(٥٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٨/٢٤.

(٥٤) الزمخشري: الكشاف، ٤/٧٩٢.

(٥٥) البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل،٥/٣٣٤.

الذي قبله، فهذا زجر ووعيد مماثل للأول لكن عطفه بحرف (ثم) اقتضى كونه أقوى من الأول لأنه أفاد تحقيق الأول وتهويله))[٥٦].

وقد أصل ابن عاشور في تفسيره لدلالة (ثم) على الترتيب الرُّتْبي، وذكر أنها تدل عليه إن كانت عاطفة لجملة على جملة، وكانت الجملة الثانية مخبرة عما أخبرت عنه الجملة الأولى، قال: ((وعطفت (ثم) جملة (استوى) على جملة خلق لكم. ولدلالة (ثم) على الترتيب والمهلة في عطف المفرد على المفرد كانت في عطف الجملة على الجملة للمهلة في الرتبة، وهي مهلة تخييلية في الأصل تشير إلى أن المعطوف بـ(ثم) أعرق في المعنى الذي تتضمنه الجملة المعطوف عليها حتى كأن العقل يتمهل في الوصول إليه بعد الكلام الأول فينتبه السامع لذلك كي لا يغفل عنه بما سمع من الكلام السابق، وشاع هذا الاستعمال حتى صار كالحقيقة، ويسمى ذلك بالترتيب الرتبي وبترتب الإخبار بكسر الهمزة))[٥٧]، ثم قال: ((واعلم أنّي تتبعت هذا الاستعمال في مواضعه فرأيته أكثر ما يرد فيما إذا كانت الجمل إخبارا عن مخبر عنه واحد بخلاف ما إذا اختلف المخبر عنه فإنَّ (ثُمَّ) تتعين للمهلة الزمنية كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة:٨٤]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٨٥]، أَيْ بعد أن أخذنا الميثاق بأزمان صرتم تقتلون أنفسكم ونحو قولك: مرت كتيبة الأنصار ثم مرت كتيبة المهاجرين))[٥٨]. ولم يشترط ابن عاشور في الجملة الثانية أن تكون أعظم رتبة من الجملة الأولى كما ذهب

(٥٦) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٣٠/٥٢١.

(٥٧) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١/٣٨٢.

(٥٨) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١/٣٨٣، ٣٨٤.

الزمخشري وإنما اكتفى بأن تكون أعرق من الأولى في المعنى وهو تحديد غير واضح مثل تحديد الزمخشري وإن كان يتجه إلى ما ذكره الزمخشري .

المسألة الرابعة: دلالتها على الاستئناف

تأتي (ثم) للاستئناف، فتكون غير عاطفة للكلمة التي بعدها على الكلمة التي قبلها، ويكون ما بعدها كلامًا مستقلاً من الناحية الإعرابية عمَّا قبلها، وهي عندئذ حرف ابتداء، قال المالقي: ((تكون حرف ابتداء على الاصطلاح، أي يكون بعدها المبتدأ والخبر))[٥٩]. ومما جاء على ذلك قوله تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران:١١١]، فـ(ثم) ههنا حرف استئناف، ولو كانت عاطفة (لا ينصرون) على (يولوكم) لجاء مجزومًا مثله، أي لسقطت منه نون الرفع وقيل (ثم لا ينصروا)، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد:٣٨]، فسقطت النون من (لا يكونوا)؛ لأن (ثم) ههنا حرف عطف وليست حرف استئناف. قال الفراء: (("ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ" مرفوع على الاستئناف، ولأن رءوس الآيات بالنون))[٦٠]، وقال الطبري: ((وإنما رفع قوله: (ثم لا ينصرون)، وقد جَزم قوله: (يولوكم الأدبار)، على جواب الجزاء، استئنافًا للكلام، لأن رؤوس الآيات قبلها بالنون))[٦١]، فعللا الاستئناف بأنه محافظة على سجع الآيات، وهو انتهاؤها بحرف النون، وقد علله الزمخشري بالمعنى، وذكر أن في

---

(٥٩) المالقي، أحمد بن عبد النور (المتوفى: ٧٠٢هـ): رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ص ١٧٥.

(٦٠) الفراء: معاني القرآن، ٢٢٩/١.

(٦١) الطبري: جامع البيان، ١١٠/٧.

هذا الاستئناف بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالنصر المطلق على اليهود مع كثرتهم ووفرة عتادهم، قال: ((فإن قلت: هلا جزم المعطوف في قوله: (ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ)؟ قلت: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فأي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيدًا بمقاتلتهم، كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي النصر وعدا مطلقًا، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتفٍ عنهم النصر والقوّة، لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر. وكان كما أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر))[٦٢].

و(ثم) وإن كانت حرف استئناف لا تخرج عن معنى العطف، بل تعطف الجملة المستأنفة على ما قبلها من الجمل، قال الزركشي: ((واعلم أنها وإن كانت حرف استئناف ففيها معنى العطف وهو عطف الخبر على جملة الشرط والجزاء كأنه قال أخبركم أنهم يقاتلونكم فيهزمون ثم أخبركم أنهم لا ينصرون))[٦٣]. والمعنى: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. وذهب الزمخشري إلى أنها عندئذ تفيد التراخي في الرتبة؛ وذلك لأن عدم نصرهم مطلقًا أعظم من هروبهم في بعض المعارك، قال: ((فإن قلت: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فما معنى التراخي في ثمَّ؟ قلت: التراخي في المرتبة لأنّ الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار))[٦٤]، وذهب أبو حيان إلى

---

(٦٢) الزمخشري: الكشاف ٤٠١/١.

(٦٣) الزركشي، محمد بن عبد الله (المتوفى: ٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركاؤه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ، ٢٦٩/٤.

(٦٤) الزمخشري: الكشاف ٤٠١/١.

أنها تفيد ترتيب الإخبار، قال: ((وثم هنا ليست للمهلة في الزمان، وإنما هي للتراخي في الإخبار. فالإخبار بتوليهم في القتال وخذلانهم والظفر بهم أبهج وأسر للنفس))[٦٥]. والمعنيان متقاربان، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في دلالتها على التراخي.

وذكر البيضاوي أن (لا ينصرون) قرئ مجزومًا بالعطف على (يولوكم)، وعندئذ يكون عدم نصر الكافرين مقيدًا بقتال المؤمنين، و(ثم) للتراخي الرتبي أيضًا، قال: ((وقرئ «لا ينصروا» عطفًا على يولوا على أن (ثم) للتراخي في الرتبة فيكون عدم النصر مقيدًا بقتالهم))[٦٦]، وذكر الألوسي أن بعضهم جوز أن تكون (ثم) للتراخي في الزمان على القراءتين، قال: ((وجوز بعضهم كونها للتراخي في الزمان على القراءتين بناء على اعتباره بين المعطوف عليه وآخر أجزاء المعطوف، وقراءة الرفع أبلغ لخلوها عن القيد))[٦٧]. والقراءتان توافقان مذهب النحاة؛ لأن المعطوف على جواب الشرط يجوز جزمه على التبعية ورفعه على الاستئناف، قال صاحب اللباب: ((قال ابن الخطيب: ههنا مسألة، وهي أن النُّحَاةَ قالوا: يجوز في المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثُمَّ الجزم والرفع، تقول: إنْ تَأتِنِي آتِكَ فَأُخْبِرَكَ بالجزم والرفع جميعًا))[٦٨].

---

(٦٥) أبو حيان: البحر المحيط، ٣٠٤/٣.

(٦٦) البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٣٣/٢.

(٦٧) الألوسي: روح المعاني، ٢٤٥/٢.

(٦٨) ابن عادل، سراج الدين، عمر بن علي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ): اللباب في علوم الكتاب، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م، ٤٧٣/١٧.

ومثل الآية السابقة في دلالة (ثم) على الاستئناف قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ [المرسلات:١٦-١٧]، فـ(ثم) على قراءة الرفع في (نتبعهم) – وهي قراءة الجمهور- تفيد الاستئناف، وعلى قراءة الجزم - وهي قراءة الأعرج عن أبي عمرو- تفيد العطف، قال الأخفش: ((وقال "ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ" رفع لأنه قطعه من الكلام الأول وإن شئت جزمته إذا عطفته على "نُهْلِكِ"))[٦٩]، وقال ابن عطية: ((قرأ جمهور القراء (ثم نتبعهم) بضم العين على استئناف الخبر، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه (ثم نتبعهم) بجزم العين عطفًا على (نُهْلِكِ)، وهي قراءة الأعرج))[٧٠]. فـ(الأولين) على الاستئناف هم من سبق قريش من الكافرين، و(الآخرين) هم قريش ومن تبعهم، وعلى الجزم كلاهما سابقان لكفار قريش، قال أبو حيان: ((فعلى الاستئناف يكون (الأولين) الأمم التي تقدمت قريشا أجمعا، ويكون (الآخرين) من تأخر من قريش وغيرهم. وعلى التشريك يكون (الأولين) قوم نوح وإبراهيم عليهما السلام ومن كان معهم، و(الآخرين) قوم فرعون ومن تأخر وقرب من مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم))[٧١]. وأبى العكبري الجزم على العطف، قال: ((وليس بمعطوف؛ لأن العطف يوجب أن يكون المعنى: أهلكنا المجرمين، ثم أتبعناهم الآخرين في الهلاك؛ وليس كذلك؛ لأن إهلاك الآخرين لم يقع بعد))[٧٢].

والخلاصة: أن دلالة (ثم) على الاستئناف لا خلاف فيها بين النحاة.

---

(٦٩) الأخفش: معاني القرآن، ٥٦٢/٢.

(٧٠) ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٤١٨/٥.

(٧١) أبو حيان: البحر المحيط، ٣٧٦/١٠.

(٧٢) العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (المتوفى : ٦١٦هـ): التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، الناشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٢٦٣/٢، ١٢٦٤.

المسألة الخامسة: دلالتها على الاستبعاد

ومعنى الاستبعاد أن ما بعد (ثم) فعلُهُ مستبعدٌ في العادات والطباع، وذلك كأنْ يتعرى إنسان عاقل سوي أمام الناس دون مبالاة، فتقول له: ترى الناس ثم تتعرى، فتعريه أمام الناس شيء مستبعد في العادات والطباع. وهذا المعنى أول من قال به الزمخشري، وتبعه فيه كثير ممن جاء بعده من المفسرين، وقد ورد مطردًا في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾[السجدة:٢٢]، وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية:٧-٨]، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١-٢]، فقد ذهب الزمخشري إلى أن (ثم) في هذه الآيات تدل على الاستبعاد، فقال في (ثم) في آية السجدة: ((''ثم'' في قوله: (ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها) للاستبعاد. والمعنى: أنّ الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعادا لتركه الانتهاز. ومنه "ثم" في بيت الحماسة:

لاَ يكْشِفُ الْغَمَّاءَ إلاَّ ابنُ حُرَّةٍ يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدّتها))[٧٣]، وفي الجاثية: ((فإن قلت: ما معنى ثم في قوله ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا؟ قلت: كمعناه في قول القائل:

(٧٣) الزمخشري: الكشاف ٣/٥١٥.

يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

وذلك أنّ غمرات الموت حقيقة، بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار عنها. وأمّا زيارتها والإقدام على مزاولتها. فأمر مستبعد، فمعنى ثم: الإيذان بأن فعل المقدّم عليها بعد ما رآها وعاينها، شيء يستبعد في العادات والطباع، وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق، من تليت عليه وسمعها: كان مستبعدا في العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها))[٧٤]، وفي آيتي الأنعام: ((فإن قلت: فما معنى ثم؟ قلت: استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، وكذلك (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُون) استبعاد لأن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم))[٧٥]. وقد تبعه في ذلك جمع من المفسرين اللغويين، قال الرازي: ((فإن قيل: فما معنى (ثم)؟ قلنا: الفائدة فيه استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته والله أعلم)) [٧٦]، وقال أيضا: ((فإن قالوا: ما معنى ثم في قوله ثم يصر مستكبرا؟ قلنا نظيره قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ)، إِلَى قَوْلِهِ: (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون)، ومعناه أنه تعالى لما كان خالقًا للسموات والأرض كان من المستبعد جعل هذه الأصنام مساوية له في المعبودية، كذا ههنا سماع آيات الله على قوتها وظهورها من المستبعد أن يقابل بالإنكار والإعراض))[٧٧]، وقال البيضاوي: ((و(ثُمَّ) لاستبعاد الإعراض عنها مع فرط وضوحها وإرشادها إلى أسباب السعادة بعد التذكير بها عقلا))[٧٨]، وقال أيضًا: ((ومعنى ثم: استبعاد عدولهم بعد هذا البيان))[٧٩]، وقال

(٧٤) الزمخشري: الكشاف ٢٨٦/٤.

(٧٥) الزمخشري: الكشاف ٧٥٧/٤.

(٧٦) الرازي: مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، ٤٧٩/١٢.

(٧٧) الرازي: مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، ٦٧٢/٢٧.

(٧٨) البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ٢٢٢/٤.

السمين الحلبي: ((قوله: (ثم يُصِرُّ) قال الزمخشري: فإنْ قلتَ: ما معنى (ثم) في قوله: (ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا) ؟ قلت: كمعناه في قول القائل:

يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

وذلك أنّ غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار. فمعنى (ثم) الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعدما رآها وعاينها شيء يستبعد في العادات والطباع، وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق. فمن تليت عليه وسمعها كان مستبعدًا في القول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها))[٨٠]. ولم يزد على قول الزمخشري شيئًا.

وذهب الطبري –وهو سابق للزمخشري– إلى أن (ثم) في قوله: (ثم يصر مستكبرًا) تدل على الإقامة والمداومة، قال: ((يقول: يسمع آيات كتاب الله تُقرأ عليه (ثُمَّ يُصِرُّ) على كفره وإثمه فيقيم عليه غير تائب منه))[٨١].

ومن الذين جاءوا بعد الزمخشري ولم يتابعوه نفر منهم: ابن عطية، فقد ذهب إلى أنها تدل على التوبيخ في هذه المواضع وما شابهها، قال: (("ثُمَّ" دالة على قبح فعل الَّذِينَ كَفَرُوا؛ لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض وغيرهما قد تقرر، وآياته قد سطعت، وأنعامه بذلك قد تبين ثم بعد هذا كله عدلوا بربهم، فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمني، أي بعد مهلة من وقوع هذا كله، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ(ثُمَّ)، وقوله: (ثُمَّ أَنْتُمْ) على نحو قوله: (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) في التوبيخ على سوء الفعل بعد

---

(٧٩) البيضاوي: أنوار التنزيل، ١٥٣/٢.

(٨٠) السمين الحلبي: الدر المصون، ٩٦٢/٩، ٩٦٣.

(٨١) الطبري: جامع البيان ٦٣/٢٢.

مهلة من وضوح الحجج))[٨٢]. والقرطبي، فقد ذهب إلى أنها تدل على التعجيب، قال: ((و(ثُمَّ) في قوله تعالى: (ثُمَّ يَطْمَعُ) ليست بـ(ثُمَّ) التي للنسق ولكِنَّها تَعْجِيبٌ، وهي كقوله تعالى: (وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون)، وذلك كما تقول: أَعْطَيْتُكَ ثُمَّ أَنْتَ تَجْفُونِي، كالمتعجب من ذلك))[٨٣]، وبعضهم ذكر أنها تدل على بعد ما بين الرتبتين، أي التراخي الرُّتْبي، قال ابن عادل الدمشقي: ((قوله: (ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) هذه أبعد ما بين الرُّتْبَتَيْنِ معنًى))[٨٤]، وقال ابن عاشور: ((عطفت جملة ثم الذين كفروا بربهم يعدلون على جملة: الحمد لله الذي خلق السماوات. فَـ(ثُمَّ) لِلتَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ الدال على أن ما بعدها يتضمن معنى من نوع ما قبله، وهو أهم في بابه. وذلك شأن (ثم) إذا وردت عاطفة جملة على أخرى، فإن عدول المشركين عن عبادة الله مع علمهم بأنه خالق الأشياء أمر غريب فيهم أعجب من علمهم بذلك))[٨٥]، وقال أيضًا: ((وَقَوْلُهُ: (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُون) عطفت على جملة: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِين)، فحرف (ثُمَّ) لِلتَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ كغالب وقوعها في عطف الجمل لانتقال من خبر إلى أعجب منه))[٨٦]، وقال كذلك: ((و(ثُمَّ) للتراخي الرُّتْبِيُّ لأن ذلك الإصرار بعد سماع مثل تلك الآيات أعظم وأعجب، فهو يصر عند سماع آيات الله وليس إصراره متأخرا عن سماع الآيات))[٨٧]. ولعل هذا لا يتوافق مع التراخي

(٨٢) ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ، ٢٦٦/٢، ٢٦٧.

(٨٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٧٢/١٩.

(٨٤) ابن عادل: اللباب في علوم الكتاب، ٤٨٩/١٥.

(٨٥) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٢٨/٧.

(٨٦) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٣١/٧.

(٨٧) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٣٣٢/٢٥.

الرتبي الذي تقدم في المسألة السابقة، إذ في التراخي الرتبي يكون الذي بعد (ثم) أعظم درجة من الذي قبلها.

وأما أبو حيان الأندلسي فمذهبه غير واضح في هذه المسألة، ففي بداية تفسيره عارض الزمخشري وابن عطية فيما ذهبا إليه من دلالة (ثم) على الاستبعاد أو التوبيخ، وذكر أنها دالة على التراخي في الزمن من دون أن يحدد بداية الزمن الذي تدل عليه أو نهايته، فقال في الجزء الأول من تفسيره عند قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٧٣-٧٤]، ((قال الزمخشري، معنى ثم قست: استبعاد القسوة بعد ما ذكر ما يوجب لين القلوب ورقتها، ونحوه (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) انتهى. وهو يذكر عنه أن العطف بثم يقتضي الاستبعاد، ولذلك قيل عنه في قوله: (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون). وهذا الاستبعاد لا يستفاد من العطف بثم، وإنما يستفاد من مجيء هذه الجمل ووقوعها بعد ما تقدم مما لا يقتضي وقوعها، ولأن صدور هذا الخارق العظيم الخارج عن مقدار البشر، فيه من الاعتبار والعظات ما يقتضي لين القلوب والإنابة إلى الله))[٨٨]، وقال في الجزء الرابع عند تفسير قوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ في سورة الأنعام: ((قال الزمخشري: فإن قلت: فما معنى (ثُمَّ)؟ قلت: استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، وكذلك (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) استبعاد لأن تمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم انتهى. وهذا الذي ذهب إليه ابن عطية مِنْ أَنَّ (ثُمَّ) للتوبيخ، والزمخشري من أَنَّ (ثُمَّ) لِلِاسْتِبْعَاد ليس بصحيح لأَنَّ (ثُمّ) لم توضع لذلك، وإنما التَّوبيخ أو الاستبعاد مفهوم من سياق الكلام لا من مدلول (ثُمَّ) ولا أعلم أحدا من النحويين ذكر ذلك، بل (ثُمَّ) هنا للمهلة في الزمان وهي عاطفة جملة اسمية على جملة اسمية، أخبر تعالى بأن

(٨٨) أبو حيان: البحر المحيط، ٤٢٢/١.

الحمد له ونبه على العلة المقتضية للحمد من جميع الناس وهي خلق السموات والأرض والظلمات والنور ثم أخبر أن الكافرين به يعدلون فلا يحمدونه))[٨٩]، ثم في آخر تفسيره سار على قول الزمخشري وقع الحافر بالحافر دون أن يزيد عليه كلمة واحدة أو أن ينتقصه، فقال في الجزء الثامن عند تفسير قوله: (ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ)، من سورة السجدة: ((قال الزمخشري: (ثُمّ) للاستبعاد، والمعنى: أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعادة، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة، ثم لم تنتهزها استبعادا لتركه الانتهاز، ومنه (ثم) في بيت الشاعرِ:

وَلَا يَكْشِفُ الْغَمَّاءَ إِلَّا ابْنُ حُرَّةٍ يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدتها))[٩٠]، وقال في الجزء التاسع عند تفسير قوله: (ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا)، من سورة الجاثية: ((قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى (ثم) في قوله: (ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا)؟ قلت: كمعناه في قول القائل:

يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

وذلك بأن غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار منها، وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها، فأمر مستبعد. فمعنى (ثم) الإيذان بأن فعل المقدم عليها، بعد ما رآها وعاينها، شيء يستبعد في العادة والطباع، وكذلك آيات الله الواضحة القاطعة بالحق، من تليت عليه وسمعها، كان مستبعدا في العقول إصراره

(٨٩) أبو حيان: البحر المحيط، ٤/٤٣٠.

(٩٠) أبو حيان: البحر المحيط، ٨/٤٣٩، ٤٤٠.

على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها)) [٩١]، ثم قال في الجزء العاشر - وهو الأخير من تفسيره- عند قوله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ [المدثر: ١١-١٥]، قال: ((قال الزمخشري: استبعاد لطمعه واستنكار، أي لا مزيد على ما أوتي كثرة وسعة، كلا: قطع لرجائه وردع)) [٩٢]. ولعل اتباعه للزمخشري على هذا النحو في خواتيم تفسيره دليل على إجازته لما ذهب إليه، وناسخ لما عارضه به في أول تفسيره. كما أن ابن عاشور رجع وفسر التراخي الرتبي في مثل هذه الآيات على الاستبعاد والتعجيب، قال: ((وجيء في عطف جملة أعرض بحرف ثم لقصد الدلالة على تراخي رتبة الإعراض عن الآيات بعد التذكير بها تراخي استبعاد وتعجيب من حالهم كقول جَعْفَرِ بنِ عُلْبَةَ الْحَارِثِيِّ:

لَا يَكْشِفُ الْغَمَّاءَ إِلَّا ابْنُ حُرَّةٍ يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

أي: عجيب إقدامه على مواقع الهلاك بعد مشاهدة غمرات الموت تغمر الذين أقدموا على تلك المواقع)) [٩٣]. فاستخدامه لجملة (تَرَاخِيَ اسْتِبْعَادٍ وَتَعْجِيبٍ)، وللشاهد الذي جاء به الزمخشري دليل على أنه يسير في فلك الزمخشري والقرطبي.

وخلاصة هذه المسألة: لعل مذهب الزمخشري فيها هو الأرجح؛ لأنه متوافق مع جميع الآيات التي جاءت على هذا النمط، ولارتضائه من كثير من المفسرين اللغويين الذين اتبعوه، ولخلو هذه الآيات من الدلالة الزمانية، كما أن من عارضه رجع في آخر أمره إلى ما ذهب إليه الزمخشري، كما تقدم عند أبي حيان وابن عاشور،

---

(٩١) أبو حيان: البحر المحيط، ٤١٦/٩.

(٩٢) أبو حيان: البحر المحيط، ٣٢٩/١٠.

(٩٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٣٣/٢١، ٢٣٤.

وما قال به ابن عطية والقرطبي قريب من مذهبه ؛ لأن التوبيخ يكون على مخالفة شيء تستبعد مخالفته ، وكذا التعجب يكون في شيء يستبعد حدوثه في العادة.

المسألة السادسة: دلالتها على الدوام والاستمرار

تدلُّ (ثم) على الدوام والاستمرار إذا كان ما يليها متصلاً بما قبلها دون مهلة ، ويبقى مستمرًا زمنًا طويلاً بعده ، مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠] ، فالاستقامة على توحيد الله تالية للإيمان به دون مهلة ، وتبقى مدة حياة الموحد ، وعلى ذلك بُشِّر المستقيمون بالجنة ، قال الطبري : ((عن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) قال : "قد قالها الناس ، ثم كفر أكثرهم ، فمن مات عليها فهو ممن استقام"))[٩٤] ، وقال الزمخشري : ((وعن أبى بكر الصديق رضي الله عنه : استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً. وعنه : أنه تلاها ثم قال : ما تقولون فيها؟ قالوا : لم يذنبوا. قال حملتم الأمر على أشدّه. قالوا : فما تقول؟ قال : لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان))[٩٥]. وعليه فإن (ثم) لا تدل على أن الاستقامة حصلت بعد تراخٍ ومهلة من الإقرار بوحدانية الله ، بل دلت على أنها حصلت على الفور لكنها بقيت مستمرة مدة طويلة ، وإلى هذا المعنى ذهب القشيري ، قال :))"ثُمَّ استقاموا" : (ثم) حرف يقتضى التراخي ، فهو لا يدل على أنهم في الحال لا يكونون مستقيمين ، ولكن معناه استقاموا في الحال ، ثم استقاموا في المآل بأن استداموا إيمانهم إلى وقت خروجهم من الدنيا ، وهو آخر أحوال كونهم

(٩٤) الطبري: جامع البيان ٢١/٤٦٤.

(٩٥) الزمخشري: الكشاف ٤/١٩٨، ١٩٩.

مكلّفين))[٩٦]. وتبعه في ذلك ابن المنير الإسكندري، قال: ((ثم" في أصل وضعها تشعر بتراخي المعطوف بها عن المعطوف عليه في الزمان وبعد ما بينهما، والزمخشري يحملها على التفاوت في المراتب والتباعد بينهما، حيث لا يمكنه حملها على التراخي في الزمان لسياق يأبى ذلك كهذه الآية: وحاصله: أنها استعيرت من تباعد الأزمنة لتباعد المرتبة، وعندي فيها وجه آخر محتمل في هذه الآية ونحوها: وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول في استصحابه، فهي على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن. ولكن معناها الأصلي تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعارة إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمن بقائه وعليه حمل قوله تعالى (ثُمَّ اسْتَقامُوا)، أي داموا على الاستقامة دوامًا متراخيا ممتد الأمد، وتلك الاستقامة هي المعتبرة، لا ما هو منقطع إلى ضده من الحيد إلى الهوى والشهوات))[٩٧].

وذهب الزمخشري إلى أن (ثم) في هذه الآية تدل على التراخي في الرتبة؛ لأن الاستقامة أشق من حصول الإيمان، فهي أعلى منه مرتبة لأنها تحتاج إلى تكرار ومراقبة، قال: (("ثُمَّ" لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة، وفضلها عليه؛ لأنّ الاستقامة لها الشأن كله. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات:١٥]، والمعنى: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته))[٩٨]. وتبعه في ذلك ابن عاشور، قال: ((و(ثُمَّ) للتراخي الرُّتْبي لأن الاستقامة زائدة في المرتبة على الإقرار بالتوحيد لأنها تشمله وتشمل الثبات عليه والعمل بما يستدعيه، ولأن

(٩٦) القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (المتوفى: ٤٦٥هـ): لطائف الإشارات، تحقيق إبراهيم البسيوني، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر، الطبعة الثالثة، ٣٢٧/٣.

(٩٧) ابن المنير، أحمد بن محمد الإسكندري (ت:٦٨٣هـ): الانتصاف من الكشاف، الكتاب مذيل بحاشية الكشاف، ٣١١/١.

(٩٨) الزمخشري: الكشاف ١٩٨/٤.

الاستقامة دليل على أن قولهم: ربنا الله كان قولا منبعثا عن اعتقاد الضمير والمعرفة الحقيقية))[٩٩]، وقال أيضا: ((ثم" للتراخي الرتبي: وهو الارتقاء والتدرج، فإن مراعاة الاستقامة أشق من حصول الإيمان لاحتياجها إلى تكرر مراقبة النفس، فأما الإيمان فالنظر يقتضيه واعتقاده يحصل دفعة لا يحتاج إلى تجديد ملاحظة. فهذا وجه التراخي الرتبي من جهة، وإن كان الإيمان أرقى درجة من العمل من حيث إنه شرط في الاعتداد بالعمل))[١٠٠]. ويلاحظ أن ابن عاشور ههنا تابع الزمخشري حتى في اشتراطه أن يكون المعطوف أعظم رتبة من المعطوف عليه، وكان من قبل - كما تقدم في دلالة (ثم) على الترتيب في الرتبة- لا يشترط في المعطوف ذلك، بل كان يشترط أن يكون العطف من عطف الجمل، وأن تكون الجملتان مرتبطتين في معنى واحد.

وذهب أبو حيان إلى أن (ثم) على أصلها في الدلالة على الترتيب بمهلة، وذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة:٢٦٢]، قال: ((فقيل لهم أجرهم عند ربهم، وعطف: بـ(ثم)، التي تقتضي المهلة، لأن من أنفق في سبيل الله ظاهرا لا يحصل منه غالبا المن والأذى، بل إذا كانت بنية غير وجه الله تعالى، لا يمن ولا يؤذي على الفور، فلذلك دخلت: ثم، مراعاة للغالب. وإن حكم المن والأذى المتعقبين للإنفاق، والمقارنين له حكم المتأخرين))[١٠١]. و(ثم) في هذه الآية تدل على البقاء والاستمرار؛ لأن الأجر لا يتحقق للمنان، بل يتحقق للمنفق من ساعة إنفاقه إذا لم يتبع إنفاقه منًّا ولا أذى وبقي على ذلك إلى أن يلقى ربه، قال ابن

(٩٩) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٨٣/٢٤.

(١٠٠) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٧/٢٦.

(١٠١) أبو حيان: البحر المحيط، ٦٦٠/٢.

المنير بعد حديثه عن قوله (ثم استقاموا) الذي مرّ قريبًا: ((وكذلك قوله: (ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً)، أي يدومون على تناسي الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان، ليسوا بتاركيه في أزمنة إلى الإذاية وتقليد المنن بسببه، ثم يتوبون))[١٠٢].

وخلاصة هذه المسألة: لعل دلالتها على دوام المعطوف وبقائه إلى فترة طويلة بعد عقبه للمعطوف عليه من غير فاصل زمني هو الأكثر توافقًا مع معنى هذه الآية وأمثالها، خاصة أن أقوال المفسرين تتجه إلى ذلك، قال الزجاج: ((معنى (ثم استقاموا) أي أقاموا على توحيد اللّه وشريعة نبيه عليه السلام)[١٠٣]. وقال الزمخشري بعد أن ذكر أنها تفيد الترتيب الرُّتْبي: ((وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضًا جديدًا))[١٠٤].

المسألة السابعة: مجيئها بمعنى هنالك

ذهب الطبري إلى أن (ثُمَّ) المضمومة الثاء تأتي بمعنى (هنالك)، والمعروف أن التي تأتي بمعنى (هنالك) هي (ثَمَّ) مفتوحة الثاء، وهذه ليست من حروف العطف وإنما هي من ظروف المكان، وهذا القول يتيم للطبري لم يسبقه إليه أحد، وخالفه فيه كثير من المفسرين واللغويين المشهورين الذين تلوه.

وقد جعل (ثم) بمعنى (هنالك) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس:٥٠-٥١]، قال: ((ومعنى قوله: (أثم)، في هذا الموضع: أهنالك، وليست

(١٠٢) ابن المنير الإسكندري: الانتصاف من الكشاف، الكتاب مذيل بحاشية الكشاف، ٣١١/١.

(١٠٣) الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، ٤٤٢/٤.

(١٠٤) الزمخشري: الكشاف ٣٧٧/٤.

(ثُمَّ) هذه ههنا التي تأتي بمعنى العطف))[١٠٥]، والمعنى: أهنالك إذا وقع عذاب الله بكم أيها المشركون آمنتم به؟ وتبعه في ذلك الثعلبي والقرطبي، قال الثعلبي: ((أَثُمَّ" هنالك وحينئذ، وليس بحرف عطف))[١٠٦]، وقال القرطبي: ((وقيل: إِنَّ (ثُمّ) ههنا بمعنى: (ثَمّ) بفتح الثاء، فتكون ظرفا، والمعنى: أهنالك، وهو مذهب الطبري))[١٠٧]. وعلى الرغم من أن قراءة طلحة بن مُصَرِّف (أَثَمَّ) بفتح الثاء، ومعناها: أهنالك، تؤيد مذهبه هذا لم يسلم من نقد كثير من المفسرين، قال ابن عطية: ((وقرأ طلحة بن مصرف (أثم) بفتح الثاء، وقال الطبري في قوله (ثم) بضم الثاء، معناه هنالك، وقال: ليست «ثم» هذه التي تأتي بمعنى العطف. قال القاضي أبو محمد: والمعنى صحيح على أنها (ثم) المعروفة ولكن إطباقه على لفظ التنزيل هو كما قلنا، وما ادعاه الطبري غير معروف))[١٠٨]. وقال أبو حيان: ((وما قاله الطبري من أن (ثم) هنا ليست للعطف دعوى، وأما قوله: إن المعنى أهنالك، فالذي ينبغي أن يكون ذلك تفسير معنى، لا أن (ثم) المضمومة الثاء معناها معنى هنالك. وقرأ طلحة بن مصرف: (أثم) بفتح الثاء، وهذا يناسبه تفسير الطبري أهنالك))[١٠٩]. وقال الزركشي: ((وقال الطبري في قوله: (أثم إذا ما وقع آمنتم به)، معناه أهنالك، وليست (ثم) العاطفة وهذا، وهم اشتبه عليه المضمومة بالمفتوحة))[١١٠].

---

(١٠٥) الطبري: جامع البيان ١٠١/١٥.

(١٠٦) الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ١٣٤/٥.

(١٠٧) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٣٥١/٨.

(١٠٨) ابن عطية: المحرر الوجيز، ١٢٤/٣.

(١٠٩) أبو حيان: البحر المحيط، ٧٠/٦.

(١١٠) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ٢٧٠/٤.

وذكر الألوسي أن (ثم) في هذه الآية تدل على الاستبعاد؛ لأنه مستبعد جدًّا أن يؤمنوا بعد ما يقع العذاب بهم وينتفعوا بإيمانهم، قال: ((وجيء بـ(ثم) دلالة على زيادة الاستبعاد، وفيه أن هذا الثاني أبعد من الأول وأدخل في الإنكار))(١١١).

وقد وجَّه ابن عاشور (ثم) في هذه الآية على أنها حرف عطف يفيد الترتيب في الرتبة؛ لأنها عطفت جملة على جملة وفق منهجه في عطفها للجمل، حيث عطفت جملة (أثم إذا ما وقع) على جملة (قل أرأيتم)، قال: ((وعطفت جملة: (أَثُمَّ إِذا مَا وَقَعَ) بحرف المهلة للدلالة على التراخي الرُّتبي، كما هو شأن (ثم) في عطفها الجمل، لأن إيمانهم بالعذاب الذي كانوا ينكرون وقوعه حين وقوعه بهم أغرب وأهم من استعجالهم به. وهمزة الاستفهام مقدمة من تأخير كما هو استعمالها مع حروف العطف المفيدة للتشريك. والتقدير: ثم أإذا ما وقع، وليس المراد الاستفهام عن المهلة))(١١٢).

وقد جوَّز الزمخشري أن تكون جملة (أثم إذا ما وقع) جوابًا لجملة الشرط (إن أتاكم عذابه)، وأن يكون دخول همزة الاستفهام على (ثم) كدخولها على حرفي العطف الواو والفاء، قال: ((ويجوز أن يكون (أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ) جواب الشرط، وماذا يستعجل منه المجرمون اعتراضًا. والمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، ودخول حرف الاستفهام على (ثم)، كدخوله على الواو والفاء في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف:٩٧]، ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف:٩٨]))(١١٣)، وفي قوله هذا اضطراب؛ لأنه يفهم منه أن (ثم) حرف عطف، والجملة المعطوفة لا تقع جوابًا للشرط إلا على تقدير زيادة العاطف (ثم)،

(١١١) الألوسي: روح المعاني، ١٢٧/٦.

(١١٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ١٩٣/١١

(١١٣) الزمخشري: الكشاف ١٩٨/٤.

وهو لم يصرَّح بزيادتها ههنا، وإن جعلها زائدة، فهذه الجملة أيضًا لا تصلح أن تكون جوابًا للشرط؛ لأنها جملة استفهامية، والاستفهامية يشترط فيها عندما تكون جوابًا للشرط أن تقترن بفاء الجواب، ولا يجوز حذف الفاء إلا في ضرورة، والقرآن ليس مكانًا للضرورة، قال الألوسي: ((وهذا الوجه مما جوزه الزمخشري تُعُقِّب بأنه في غاية البعد لأن (ثم) حرف عطف لم يسمع تصدير الجواب به، والجملة المصدرة بالاستفهام لا تقع جوابًا بدون الفاء)). وذكر أبو حيان أن الزمخشري عطف جملة (ثم إذا ما وقع) على جملة محذوفة بعد الهمزة، قال: ((وخلاف الزمخشري للجماعة في دعواه أن بين الهمزة وحرف العطف جملة محذوفة عطفت عليها الجملة التي بعد حرف العطف))[١١٤]، وعلى قوله يكون المعنى: أكفرتم؟ ثم إذا ما وقع آمنتم به. وما ذكره أبو حيان هذا غير موجود في كلام الزمخشري في كشافه عند تفسيره لهذه الآية في سورة يونس. وقد صرَّح الألوسي أنه مراد الزمخشري، وأنه أيضًا بعيد وفيه تكلف، قال: ((قيل: مراد الزمخشري أنه يدل على الجواب التقدير إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه وما في النظم الكريم معطوف عليه للتأكيد، نحو: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر:٣-٤]، وتعقب بأنه لا يخفى تكلفه، فإن عطف التأكيد بـ(ثم) مع حذف المؤكد مما لا ينبغي ارتكابه))[١١٥].

وذهب مجموعة من المفسرين إلى أن (ثم) في هذه الآية حرف عطف، لكنهم لم يذكروا المعنى الذي تدل عليه، قال مكي: ((قال الطبري: (أثم) بمعنى (هنالك) إذا وقع العذاب بكم آمنتم بالله عز وجل. وليست عنده (ثم) التي للعطف وهو غلط منه. وإنما التي تكون بمعنى (هنالك)، هي المفتوحة الثاء بمنزلة قوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا ﴾

(١١٤) أبو حيان: البحر المحيط، ٦/٧٠.

(١١٥) الألوسي: روح المعاني، ٦/١٢٧.

[الإنسان:٢٠]. والتقدير عند غيره أنها (ثم) التي للعطف))[١١٦]، وقال الرازي: ((وأما قوله: أَثُمَّ إِذا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِه فاعلم أن دخول حرف الاستفهام على (ثُمَّ) كدخوله على الواو والفاء في قوله: (أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى)، (أَفَأَمن)، وهو يفيد التفريع والتوبيخ، ثم أخبر تعالى أن ذلك الإيمان غير واقع لهم بل يعيرون ويوبخون))[١١٧]، وهذا قريب من قول الزمخشري، وقال أبو حيان: ((و(ثُمّ) حرف عطف وتقدمت همزة الاستفهام عليها كما تقدمت على الواو والفاء في: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ [يوسف:١٠٩]، وفي ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ [الروم:٩]))[١١٨]. وقال دراز: ((وكلمة "ثم" العاطفة دلت على المعطوف عليه المطوي بينها وبين الهمزة))[١١٩].

وخلاصة هذه المسألة: أن الوجه الذي ذهب إليه الطبري يتسق مع معنى الآية، لكنه ليس على مذهب النحاة في (ثم)، وقد ذكر الطبري في تفسيره أن الكلام ينبغي أن يحمل على معناه من التأويل، ثم يلتمس له وجه من الإعراب لا العكس، قال: ((وأما الذين ذكرنا قولهم من أهل العربية، فقد قالوا على مذهب العربية، غير أنهم أغفلوا معنى الكلمة وحملوها على غير وجهها من التأويل. وإنما ينبغي أن يحمل الكلام على وجهه من التأويل، ويلتمس له على ذلك الوجه للإعراب في الصحة مخرج، لا على إحالة الكلمة عن معناها ووجهها الصحيح من التأويل))[١٢٠]. خاصة

---

(١١٦) مكي بن أبي طالب: الهداية إلى بلوغ النهاية، ٣٢٧٩/٥.

(١١٧) الرازي: مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)،١٧/ ٢٦٣.

(١١٨) أبو حيان: البحر المحيط، ٧٠/٦.

(١١٩) دراز، محمد بن عبد الله (المتوفى : ١٣٧٧هـ): النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم ، اعتنى به أحمد مصطفى فضلية، قدم له أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، الناشر دار القلم للنشر والتوزيع، طبعة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ١٧٥/١.

(١٢٠) الطبري: جامع البيان، ٤٣٣/١٩، ٤٣٤.

أن دلالة (ثم) على الترتيب والمهلة في هذه الآية غير واضحة بسبب تقدم همزة الاستفهام عليها، والهمزة تؤدي إلى إنكار تسبب ما بعد العاطف. قال ابن عاشور: ((إنكار الترتب والمهلة في قوله تعالى: (أَثُمَّ إِذا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ)، وقول النّابغة:

أَثُمَّ تَعَذَّرَانِ إِلَيَّ مِنْهَا فَإِنِّي قَدْ سَمِعْتُ وَقَدْ رَأَيْتُ))[١٢١].

المسألة الثامنة: دلالتها على التقديم

وذلك أن يحدث ما بعدها قبل الذي قبلها بفاصل زمني، وهذا على عكس دلالتها في التراخي، إذ الأصل فيها أن يحدث الذي يليها بعد ما قبلها بفاصل زمني، وعلى هذا وُجِّهَ قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر:٦]؛ وذلك لأن حواء –عليها السلام– سابقة في الخلق لولد آدم – عليه السلام– بفترة زمانية، فخلق الله تعالى آدم أولاً، ثم خلق حواء، وعاشا في الجنة، ثم هبطا إلى الأرض من الجنة، وبدأ خلق ذريتهما في الأرض من تناسلهما بعد ذلك، وما زال الخلق مستمرًا. ولعل أول من ذهب إلى هذا التوجيه الفراء، قال: ((وربما جعلوا (ثُمَّ) فيما معناهُ التقديم ويَجعلونَ (ثُمَّ) من خبر المتكلم. من ذَلِكَ أن تَقُولَ: قد بلغني ما صنعت يومك هَذَا، ثُمَّ ما صنعت أمس أعجب))[١٢٢]، وقال الزجاج: ((والنفس الواحدة يعني بها آدم – صلى الله عليه وسلم – وزوجها حَوَّاءُ. وإنَّما قوله (ثُمَّ) لمعنى خلقكم من نَفْس واحدةٍ، أي خلقها وَاحِدة ثم جعل منها زوجها، أي خلقها ثم

(١٢١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ١١٢/٤.

(١٢٢) الفراء: معاني القرآن، ٤١٤/٢.

جَعَل مِنها زَوْجَها قَبْلَكُمْ))[١٢٣]، وقال النيسابوري: ((وقيل: (ثم) قد يأتي مع الجملة دالاً على التقدّم))[١٢٤].

وذهب جمع من المفسرين إلى تأويل هذه الآية، فوجهوا (ثم) على وجوه:

الأول: أنها على أصلها في الدلالة على الترتيب بمهلة، قال ابن عادل الدمشقي في وجوه ذكرها: ((إنها على بابها من الترتيب بمهلة؛ وذلك أنه يروى أنه تعالى أخرجنا من ظهر آدم كالذَّرّ، ثم خلق حواء بعد ذلك بزمان))[١٢٥]. وهذا قائم على ما جاء في السنة من أن الله تعالى عندما خلق آدم أخرج كل ذريته من ظهره كالذر، فكسبهم العقل وأخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم[١٢٦]، وأسكن آدم الجنة، ثم خلق من ضلعه حواء بعد ذلك، قال الطبري: ((إن الله لما خلق آدم مسح ظهره، فأخرج كل نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة، ثم أسكنه بعد ذلك الجنة، وخلق بعد ذلك حواء من ضلع من أضلاعه))[١٢٧].

الثاني: أنها على بابها أيضًا ولكن أن يعطف بها ما بعدها على المعنى المفهوم من قوله (وَاحِدَةٍ)، إذ التقدير من نفس وُحِّدت، أي انفردت ثم جعل منها زوجها، أو من نفس وحدها، قال السمين الحلبي((إنها على بابها... وهو أن يعطف بها ما بعدها على ما فهم من الصفة في قوله: (واحدة) إذ التقدير: من نفس وحدت أي انفردت ثم جعل منها زوجها))[١٢٨]، وقال الطبري: ((أن يكون خلقه الزوج مردودًا على

---

(١٢٣) الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، ٣٤٥/٤.

(١٢٤) النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ٦١٥/٥.

(١٢٥) ابن عادل الدمشقي: اللباب في علوم الكتاب،٤٧٤/١٦.

(١٢٦) انظر الطبري: جامع البيان ٤٢٠/١.

(١٢٧) الطبري: جامع البيان ٢٥٥/٢١.

(١٢٨) السمين الحلبي: الدر المصون، ٩/ ٤٠٩.

واحدها، كأنه قيل: خلقكم من نفس وحدها ثم جعل منها زوجها، فيكون في واحدة معنى: خلقها وحدها))[١٢٩]. وأيضًا يجوز أن يكون العطف على محذوف صفة لواحدة، التقدير: خلقكم من نفس واحدة خلقها ثم جعل منها زوجها، ذكر ذلك البيضاوي، قال: ((و(ثُمَّ) للعطف على محذوف هو صفة نَفْسٍ مثل: خلقها))[١٣٠].

الثالث: أنها تدل على التراخي في الرتبة، كما ذكر الزمخشري وابن عاشور، وعلى قول الزمخشري إن ما بعدها أعظم درجة مما قبلها، أي أن خلق حواء أعظم درجة من خلق ذريتها ؛ لأنه لم تجرِ عليه العادة ولم يتكرر، قال: ((فإن قلت: ما وجه قوله ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها، وما يعطيه من معنى التراخي؟ قلت: هما آيتان من جملة الآيات التي عدّدها دالاً على وحدانيته وقدرته: تشعيب هذا الخلق الفائت للحصر من نفس آدم، وخلق حواء من قصيراه، إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرّة، والأخرى لم تجر بها العادة، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل، فكانت أدخل في كونها آية، وأجلب لعجب السامع، فعطفها بـ(ثم) على الآية الأولى، للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية، فهو من التراخي في الحال والمنزلة، لا من التراخي في الوجود))[١٣١]، وعلى قول ابن عاشور إن (ثم) متى ما عطفت جملة على جملة مرتبطة معها في المعنى فهي للترتيب الرتبي سواء كانت أعظم منها أم لم تكن، قال: ((عطف قوله: جعل منها زوجها بحرف (ثُمَّ) الدَّال على التَّراخي الرُّتْبِي؛ لأن مساقها الاستدلال على الوحدانية وإبطال الشريك بمراتبه، فكان خلق آدم دليلا على عظيم قدرته تعالى وخلق زوجه من نفسه دليلا آخر مستقل الدلالة على عظيم قدرته. فعطف بحرف (ثُمَّ) الدال

(١٢٩) الطبري: جامع البيان ٢١/٢٥٥.

(١٣٠) البيضاوي: أنوار التنزيل، ٥/٣٧.

(١٣١) الزمخشري: الكشاف ٤/١١٣، ١١٤.

في عطف الجمل على التَّراخي الرُّتْبي، إشارة إلى استقلال الجملة المعطوفة بها بالدلالة مثل الجملة المعطوفة هي عليها))[١٣٢].

الرابع: أنها تدل على الترتيب في الإخبار، أي أن الخبر الذي يليها متأخر في الذكر عن الخبر الذي قبلها، قال النحاس: ((ثم" ههنا تدل على أن الإخبار الثاني بعد الأول، وقال قتادة: (ثم جعل منها زوجها) حواء، خلقها من ضلع من أضلاعه))[١٣٣]، وقال ابن عطية: ((إنما هي لترتيب الإخبار لا لترتيب المعاني. كأنه قال: ثم كان من أمره قبل ذلك أن جعل منها زوجها، وفي نحو هذا المعنى ينشد هذا البيت:

❖قل لمن ساد ثم ساد أبوه ❖❖❖ ثم قد ساد قبل ذلك جده❖))[١٣٤]، وقال الرازي: ((فإن قيل كيف جاز أن يقول: خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها، والزوج مخلوق قبل خلقهم؟ أجابوا عنه من وجوه الأول: أن كلمة (ثم) كما تجيء لبيان كون إحدى الواقعتين متأخرة عن الثانية، فكذلك تجيء لبيان تأخر أحد الكلامين عن الآخر، كقول القائل بلغني ما صنعت اليوم، ثم ما صنعت أمس كان أعجب، ويقول أيضا قد أعطيتك اليوم شيئا، ثم الذي أعطيتك أمس أكثر الثاني: أن يكون التقدير خلقكم من نفس خلقت وحدها ثم جعل منها زوجها الثالث: أخرج الله تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حَوَّاء))[١٣٥].

---

(١٣٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٣٣١/٢٣.

(١٣٣) النحاس أحمد بن محمد (المتوفى: ٣٣٨هـ): معاني القرآن، تحقيق محمد علي الصابوني، الناشر جامعة أم القرى بمكة المرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ١٥٢/٦.

(١٣٤) ابن عطية: المحرر الوجيز، ٥١٩/٤.

(١٣٥) الرازي: مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، ٤٢٣/٢٦، ٤٢٤.

الخامس: أنها لمطلق الجمع بين الخبرين من دون ترتيب مثل واو العطف، أي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، قال المرادي: ((وذهب الفراء، فيما حكاه عنه السيرافي، والأخفش، وقطرب، فيما حكاه أبو محمد عبد المنعم بن الفرس في مسائله (الخلافيات) عنه، إلى أن ثم بمنزلة الواو، لا ترتب. ومنه عندهم " خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها"، ومعلوم أن هذا الجعل كان قبل خلقنا))[١٣٦]. ويؤيد توجيههم هذا آية سورة الأعراف حيث جاء العطف فيها بالواو بدلاً من (ثم) وهي: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

ومثل الآية السابقة قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة:٧-٩]، فـ(ثم) في (ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ) تدل على التقديم؛ لأن تسوية آدم ونفخ الروح فيه سابق لجعل نسله من ماء مهين بزمان طويل. وكذلك قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾، إلى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٤]، فإيتاء موسى عليه السلام الكتاب سابق لمحمد صلى الله عليه وسلم وتلاوته على أمته بفترة طويلة.

وخلاصة المسألة فإن القول بدلالة (ثم) على التقديم يتوافق مع هذه الآيات من غير أن يحتاج إلى تأويل أو إلى تقدير محذوف، والأقوال الأخرى أقرب منه إلى مذاهب النحاة لكنها تحتاج إلى تأويل أو تقدير كما تقدم.

---

(١٣٦) المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، ص٤٢٧.

المسألة التاسعة: دلالتها على معنى الواو

الفرق بين (ثم) و واو العطف في الدلالة أن الأصل في (ثم) أن تدل على الترتيب مع التراخي، فإن قلت: جاء زيد ثم عمرو، فيجب أن يكون مجيء زيد سابقًا لمجيء عمرو، وأما الواو فتدل على مطلق الجمع من غير ترتيب، فإن قلت: جاء زيد وعمرو، فهذا يدل على أن المجيء قد حصل منهما كليهما دون ترتيب، فيجوز أن يكون مجيء عمرو هو الأول أو مجيء زيد. قال الطبري: ((ثم" في كلام العرب لا تأتي إلا بإيذان انقطاع ما بعدها عما قبلها، وذلك كقول القائل: قمت ثم قعدت، لا يكون (القعود) إذ عطف به بـ(ثم) على قوله: (قمت) إلا بعد القيام، وكذلك ذلك في جميع الكلام. ولو كان العطف في ذلك بالواو، جاز أن يكون الذي بعدها قد كان قبل الذي قبلها، وذلك كقول القائل: قمت وقعدت، فجائز أن يكون (القعود) في هذا الكلام قد كان قبل (القيام)؛ لأن الواو تدخل في الكلام إذا كانت عطفًا، لتوجب للذي بعدها من المعنى ما وجب للذي قبلها، من غير دلالة منها بنفسها على أن ذلك كان في وقت واحد أو وقتين مختلفين، أو إن كانا في وقتين، أيهما المتقدم وأيهما المتأخر))[١٣٧].

وقد ذهب سيبويه إلى أن (ثم) تكون بمعنى الواو في القسم، قال: ((وتقول: وحياتي ثمَّ حياتك لأفعلن، فـ(ثمَّ) ههنا بمنزلة الواو. وتقول: والله ثم الله لأفعلنّ، وبالله ثم الله لأفعلن، وتالله ثمَّ الله لأفعلنَّ))[١٣٨]، وتوسع في ذلك الفراء فوجهها على معنى الواو في غير القسم، وتبعه الأخفش وقطرب، قال المرادي: ((وذهب

(١٣٧) الطبري: جامع البيان، ٣٢١/١٢، ٣٢٢.

(١٣٨) المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، ص٤٢٧.

الفراء، فيما حكاه عنه السيرافي، والأخفش، وقطرب فيما حكاه أبو محمد عبد المنعم بن الفرس في مسائله (الخلافيات) عنه، إلى أن ثم بمنزلة الواو، لا ترتب))[١٣٩].

وقد وُجِّهَ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف:١١]، فظاهر الآية يدل على أن الخلق سابق للتصوير، وأن خَلْقنا سابق لسجود الملائكة لآدم، ومعلوم أن الأمر ليس كذلك، فقد خُلِق آدم أولاً، ثم أُمرت الملائكة بالسجود له، ثم جاء خَلْقنا من بعد ذلك، وكان تصوير آدم مقارنًا لخلقه، وتصوير ذريته بعد خلقها بمدة، حيث يبتدئ خلقها من نطفة ثم يتدرج إلى أن تكتمل صورة الإنسان، فدلالة (ثم) على التراخي الزمني في خلق آدم وفي سجود الملائكة إليه بعد خلقنا تحتاج إلى تأويل، فلذا جعلها الأخفش بمعنى الواو؛ لأن الواو لا تدل على الترتيب، ويكون المعنى على تقديره: ولقد خلقناكم وصورناكم وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم، قال: ((وقال (ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ) ؛ لأنَّ (ثُمَّ) في معنى الواو))[١٤٠]. وتبعه في ذلك بعض المفسرين، قال أبو حيان: ((والظاهر أن الخطاب عام لجميع بني آدم ويكون على قوله ثم قلنا إما أن تكون فيه ثم بمعنى الواو فلم ترتب ويكون الترتيب بين الخلق والتصوير أو تكون ثم في ثم قلنا للترتيب في الأخبار لا في الزمان وهذا أسهل محمل في الآية))[١٤١]، وقال السمين الحلبي: ((قوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا) اختلف الناس في «ثم» في هذين الموضعين: فمنهم مَنْ لم يلتزم فيها ترتيبًا وجعلها بمنزلة الواو فإنَّ خَلْقَنا وتصويرَنا بعد قوله تعالى للملائكة "اسجدوا"))[١٤٢]. وقد خطأه آخرون، قال الزجاج: ((زعم

(١٣٩) سيبويه: الكتاب، ٥٠٢/٣.

(١٤٠) الأخفش: معاني القرآن، ٣٢١/١.

(١٤١) أبو حيان: البحر المحيط، ١٦/٥.

(١٤٢) السمين الحلبي: الدر المصون، ٢٦٠/٥.

الأخفش أن (ثم) ههنا في معنى الواو، وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعربيته، إنما ثم للشيءِ الذي يكون بعد المذكور قبله لا غير))[١٤٣]، وقال النحاس: ((قال الأخفش وهو أحد قول قطرب: (ثم) ههنا بمعنى الواو. وهذا القول خطأ على مذهب أهل النظر من النحويين ولا يجوز أن تكون (ثم) بمعنى الواو لاختلاف معنييهما))[١٤٤].

وقد وُجِّهت (ثم) في هذه الآية على غير الواو على أقوال:

الأول: أنها على أصلها في الدلالة على التراخي في الزمن، وأن المقصود بـ(خلقناكم) و(صورناكم) آدم عليه السلام نفسه، أو أن الله خلقنا ثم صورنا في صلب آدم لأخذ الميثاق كما تقدم في (دلالة ثم على التقديم)، ثم بعد ذلك قال للملائكة اسجدوا لآدم، قال ابن عطية: ((المراد بقوله: ولقد خلقناكم ثم صورناكم آدم بنفسه وإن كان الخطاب لبنيه، وذلك لما كان سبب وجود بنيه بما فعل فيه صح مع تجوز أن يقال إنه فعل في بنيه، وقال: مجاهد: المعنى ولقد خلقناكم ثم صورناكم في صلب آدم وفي وقت استخراج ذرية آدم من ظهره أمثال الذر في صورة البشر. قال القاضي أبو محمد: ويترتب في هذين القولين أن تكون ثُمَّ على بابها في الترتيب والمهلة))[١٤٥].

الثاني: أنها على أصلها أيضًا، وذلك قائم على علم الله بما سيحدث، وإثباته لصورة كل شيء في اللوح المحفوظ قبل حدوثها، ثم بعد ذلك أحدث خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له، وهذا مذهب الرازي، قال: ((قوله: (خلقناكم) إشارة إلى حكم الله وتقديره لإحداث البشر في هذا العالم، وقوله (صورناكم) إشارة إلى أنه تعالى أثبت في اللوح المحفوظ صورة كل شيء كائن محدث إلى قيام الساعة على ما جاء

---

(١٤٣) الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، ٣٢١/٢.

(١٤٤) النحاس: معاني القرآن، ١٢/٣.

(١٤٥) ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٣٧٧/٢، ٣٧٨.

في الخبر أنه تعالى قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فخلق الله عبارة عن حكمه ومشيئته والتصوير عبارة عن إثبات صور الأشياء في اللوح المحفوظ، ثم بعد هذين الأمرين أحدث الله تعالى آدم وأمر الملائكة بالسجود له. وهذا التأويل عندي أقرب من سائر الوجوه))(١٤٦).

الثالث: أنها تدل على الترتيب في الإخبار أو الرتبة وهما متقاربان، قال الرازي: ((خلقناكم ثم صورناكم ثم إنا نخبركم أنا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فهذا العطف يفيد ترتيب خبر على خبر ولا يفيد ترتيب المخبر على المخبر))(١٤٧)، وقال ابن عاشور: ((وعطفت جملة صورناكم بحرف (ثم) الدالة على تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق، لأن التصوير حالة كمال في الخلق بأن كان الإنسان على الصورة الإنسانية المتقنة حسنًا وشرفًا، بما فيها من مشاعر الإدراك والتدبير، سواء كان التصوير مقارنًا للخلق كما في خلق آدم، أم كان بعد الخلق بمدة، كما في تصوير الأجنة من عظام ولحم وعصب وعروق ومشاعر، كقوله تعالى: فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحمًا))(١٤٨).

الرابع: أنها تدل على التقديم. وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر:٦].

ومثل الآية السابقة قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس:٤٦]، قال النسفي: (("ثم" مع الجملة تأتي بمعنى

(١٤٦) الرازي: مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، ٢٠٦/١٤.

(١٤٧) الرازي: مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، ٢٠٦/١٤.

(١٤٨) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٣٦/٨.

الواو كقوله: ثم الله شهيد))[١٤٩]. فوجه (ثم) على معنى الواو لأن الله شهيد في الدنيا والآخرة، قال الزمخشري: ((فإن قلت: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين، فما معنى ثم؟ قلت: ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون. وقرأ ابن أبى عبلة: ثم، بالفتح، أي هنالك. ويجوز أن يراد: أنّ الله مؤدّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة، حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم))[١٥٠]، فجعلها على أصلها في الدلالة على التراخي في الزمن، ويجوز أيضًا أن توجه بمعنى (هنالك) لقراءتها بالفتح على مذهب الطبري في هذه الحالة، قال السمين الحلبي: ((وقرأ إبراهيم ابن أبي عبلة (ثَمَّ) بفتح الثاء جعله ظرفًا لشهادة الله، فيكون (ثَمَّ) منصوبًا بـ(شهيد)، أي: اللَّهُ شهيدٌ عليهم في ذلك المكان، وهو مكانُ حَشْرِهم. ويجوز أن يكونَ ظرفًا لَمَرْجِعهم أي: فإلينا مَرْجِعُهم، يعني رجوعهم في ذلك المكانِ الذي يُثاب فيه المُحْسِن ويُعاقَبُ فيه المسيءُ))[١٥١]. وأيضًا مثلها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة:١٧-١٩]، وذلك لأن بيان معاني القرآن ملازم لورود ألفاظه غير متأخر عنها، لذا وجهها بعضهم على أنها على معنى الواو؛ لأن الواو تفيد مطلق الجمع، قال الزركشي عن (ثم): ((وقيل: بمعنى واو العطف كقوله: (فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد)، أي هو شهيد، وقوله: "ثم إن علينا بيانه"))[١٥٢]، وقد وجهها ابن عاشور على أنها تفيد الترتيب في الرتبة، قال: ((وقد احتج بهذه الآية بعض علمائنا

---

(١٤٩) النسفي، عبد الله بن أحمد (المتوفى: ٧١٠هـ): مدارك التنزيل وحقائق التأويل، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ، ٥٤٩/١.

(١٥٠) الزمخشري: الكشاف، ٣٥٠/٢.

(١٥١) السمين الحلبي: الدر المصون، ٢١٣/٦.

(١٥٢) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ٢٦٨/٤.

الذين يرون جواز تأخير البيان عن المبين متمسكين بأن ثم للتراخي وهو متمسك ضعيف لأن التراخي الذي أفادته ثم إنما هو تراخ في الرتبة لا في الزمن، ولأن ثم قد عطفت مجموع الجملة ولم تعطف لفظ بيانه خاصة، فلو أريد الاحتجاج بالآية للزم أن يكون تأخير البيان حقًا لا يخلو عنه البيان وذلك غير صحيح))[١٥٣].

وخلاصة هذه المسألة: فإن أغلب المفسرين والنحاة قد رفضوا توجيه (ثم) على معنى الواو، بالرغم من ظهور المعنى على معناها دون الحاجة إلى تأويل، بل ذهب بعضهم إلى أن هذا حملاً للقرآن على الشاذ في كلام العرب، قال الطبري: ((فإن ظن ظانّ أن العربَ، إذ كانت ربما نطقت بـ(ثم) في موضع الواو في ضرورة شعره، كما قال بعضهم:

سَأَلْتُ رَبِيعَةَ: مَنْ خَيْرُهَا أَبًا ثُمَّ أُمًّا؟ فَقَالَتْ: لِمَهْ؟

بمعنى: أبًا وأمًّا، فإن ذلك جائز أن يكون نظيره، فإن ذلك بخلاف ما ظن. وذلك أن كتاب الله جل ثناؤه نزل بأفصح لغات العرب، وغير جائز توجيه شيء منه إلى الشاذّ من لغاتها، وله في الأفصح الأشهر معنى مفهومٌ ووجه معروف))[١٥٤]. وقبلوا أن تكون على أصلها في الدلالة على التراخي في الزمن، وأولوا خلقنا وتصويرنا بخلق آدم وتصويره على طريقة العرب في خطاب الرجل الموجود بالأفعال والمقصود من ذلك سلفه المعدوم، كما قال تعالى مخاطبًا اليهود الذين كانوا بين أظهر المؤمنين: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٦٣]، والمراد بذلك سلفهم المعدوم.

(١٥٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٣٥٠/٢٩، ٣٥١.

(١٥٤) الطبري: جامع البيان، ٣٢٢/١٢.

المسألة العاشرة: زيادة ثم

ذهب أبو الحسن الأخفش إلى القول بزيادة (ثم) في قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾ [التوبة: ١١٧ – ١١٨]، وتبعه في ذلك أبو علي الفارسي، والزائدة عندهما (ثم) الثانية في (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا)؛ وذلك لوجود (إذا) الشرطية في أول الآية في (حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ)، وهي محتاجة إلى جواب، وجوابها غير مذكور، وبزيادة (ثم) يتحقق لها الجواب، ويكون المعنى: حتى إذا ضاقت عليهم الأرض وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه تاب عليهم، فجواب (إذا) "تاب عليهم"، على توجيههما، قال الباقولي: ((وقال أبو الحسن في قوله تعالى: (ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا): إن (ثم) زيادة. والمعنى على ما قال: لأن المعنى: حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت تاب عليهم ليتوبوا. فجواب الجزاء، إن لم تقدّر (ثم) زيادة، غير مذكور))[١٥٥]. وسيرد قول أبي علي لاحقًا في هذه المسألة.

وقد وُجِّهت (ثم) هذه على وجوه أخرى، ولكن قبل ذكرها لابد من توضيح ثلاث مسائل؛ لأن التوجيه يترتب على تحديد معانيها، وهي: عودة الضمير في

---

(١٥٥) الباقولي، علي بن الحسين بن علي الأَصْفهاني (المتوفى: نحو ٥٤٣هـ): إعراب القرآن المنسوب خطأ للزجاج، تحقيق ودراسة إبراهيم الإبياري، الناشر: دار الكتاب المصري بالقاهرة ودار الكتب اللبنانية ببيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٢٠هـ، ١/١٠٣.

(عليهم) الأولى، والمقصود بتكرار التوبة ثلاث مرات، والمراد بـ(خُلفوا). أما الضمير في (عليهم) فقد اُختلف في مرجعه، هل يعود على النبي ومن معه من المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين شاركوا في غزوة تبوك دون غيرهم، أو على كل المسلمين مع النبي من المهاجرين والأنصار الذين شاركوا والذين لم يشاركوا لعذر أو لأمر النبي لهم بالبقاء في المدينة أو لغيابهم عن حضور الغزوة لسفر أو موت؟ فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود به هو الفريق الذي كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، ويؤيد ذلك قوله: (الذين اتبعوه في ساعة العسرة)، والعسرة هي غزوة تبوك، حيث خالط قلوب بعض مَنْ معه الشك بسبب هذه العسرة والمشقة في السفر إلى تبوك، قال الطبري: ((يقول: من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، ويشك في دينه ويرتاب، بالذي ناله من المشقة والشدّة في سفره وغزوه، (ثم تاب عليهم) ، يقول: ثم رزقهم جلّ ثناؤه الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه، وإبصار الحق الذي كان قد كاد يلتبس عليهم))[١٥٦]، وذهب آخرون إلى أنه شامل لجميع المهاجرين والأنصار من شارك في تبوك ومن لم يشارك، قال ابن عاشور: ((وجملة (ثم تاب عليهم) عطف على جملة (لقد تاب الله)، أي تاب على غير هذا الفريق مطلقا، وتاب على هذا الفريق بعد ما كادت قلوبهم تزيغ، ... وجوز كثير من المفسرين أن تكون (ثم) للترتيب في الذكر، والجملة بعدها توكيدا لجملة (تاب الله)، فالضمير للمهاجرين والأنصار كلهم))[١٥٧]. وأما تكرار التوبة ثلاث مرات، فالأولى (لقد تاب الله)، فللنبي والمهاجرين والأنصار الذين شاركوا في غزوة تبوك خاصة، والثانية (ثم تاب عليهم) ففيها خلاف، هل هي لمن شارك في تبوك أو للجميع، فمن جعلها للمشاركين في تبوك

(١٥٦) الطبري: جامع البيان ٥٣٩/١٤.

(١٥٧) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٥١/١١.

جعل (ثم) على أصلها في الدلالة على المهلة، وما بعدها للتوكيد، قال ابن عاشور: ((وتاب على هذا الفريق بعد ما كادت قلوبهم تزيغ، فتكون (ثُم) على أصلها من المهلة، المعنى تاب عليهم فأهموا به وخرجوا فلقوا المشقة والعسر، فالضّمير في قوله (عَلَيْهم) للفريق))[١٥٨]، أي تاب عليهم عندما همُّوا بالخروج إلى تبوك، ثم تاب عليهم مرة أخرى بعدما خرجوا ولقوا العسرة والمشقة في الزاد والظهر والماء وشدة الحر حتى كادت تميل قلوب بعضهم عن الحق وتشك وترتاب في الدين بسبب هذه المشقة، قال النيسابوري: ((التكرير للتوكيد مع رعاية دقيقة هي أن التوبة اكتنفت الذنب من جانبيه، وذلك أنه بدأ بذكر التوبة قبل ذكر الذنب تطييبًا لقلوبهم ثم ذكر الذنب، ثم أردفه بذكر التوبة ليدل على أن العفو عفو متأكد كما يقول السلطان عند كمال الرضا: عفوت عنك ثم عفوت عنك))[١٥٩]، ومن جعلها للجميع فـ(ثم) عنده للترتيب في الذكر، قال ابن عاشور: ((وجوز كثير من المفسرين أن تكون (ثم) للترتيب في الذكر، والجملة بعدها توكيدا لجملة (تاب الله)، فالضمير للمهاجرين والأنصار كلهم))[١٦٠]، والمعنى أنه ذكر لكم أنه تاب على الفريق من المهاجرين والأنصار الذي شارك مع النبي في غزوة تبوك، ثم ذكر لكم أيضًا أنه تاب على جميع المسلمين من المهاجرين والأنصار. وهذا كله يتعلق بـ(ثم) الأولى. وأما (ثم) الثانية في (ثم تاب عليهم ليتوبوا)، فالتوبة فيها موجهة للثلاثة الذين خلفوا وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وهي المقصودة بالبحث هنا. والمسألة الثالثة: فما المقصود من تخلف الثلاثة؟ هل تخلفهم عن الغزو مع النبي في تبوك، أو تخلفهم عن قبول العذر منهم مع من اعتذر للرسول عند عودته من تبوك وقبوله لأعذارهم؟ في ذلك خلاف ،

(١٥٨) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٥١/١١.

(١٥٩) النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ٥٤١/٣.

(١٦٠) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٥١/١١.

قال الماوردي: ((قوله عز وجل: (وَعلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ)، يعني وتاب على الثلاثة الذين خلّفوا وفيه وجهان: أحدهما: خلفوا عن التوبة وأخرت عليهم حين تاب عليهم، أي على الثلاثة الذين لم يربطوا أنفسهم مع أبي لبابة، قاله الضحاك وأبو مالك. الثاني: خلفوا عن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله عكرمة))[١٦١]، والراجح أنهم خُلِّفوا عن قبول التوبة، بدليل ما ذكره الطبري عن كعب بن مالك، وهو أحد الثلاثة، قال: ((قال كعب: خُلِّفنا، أيها الثلاثة، عن أمر أولئك الذين قَبِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم توبتهم حين حَلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمْرَنا حتى قضى الله فيه. فبذلك قال الله: (وعلى الثلاثة الذين خلفوا)، وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيّانا، وإرجاؤه أمرَنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه))[١٦٢].

وأما الوجوه الأخرى التي وجهت عليها (ثم) في قوله ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ فهي:

الأول: أنها على أصلها في الدلالة على الترتيب بمهلة، وذلك قائم على ظاهر الآية، ومهمل لجانب الصنعة اللغوية فيها، فظاهر الآية: أن العفو عن هؤلاء الثلاثة قد تم بعد خمسين يومًا[١٦٣] من عودة النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك، بينما نزل قوله تعالى: لقد تاب الله على النبي ... الآية، على النبي حين قفل راجعًا من تبوك ولم يجاوزها، قال الطبري: ((قَفَل رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك ولم يجاوزها، وأنزل الله: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في

(١٦١) الماوردي: النكت والعيون، ٤١٣/٢.

(١٦٢) الطبري: جامع البيان ٥٥٦/١٤.

(١٦٣) انظر، النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ٥٤٢/٣.

ساعة العسرة) الآية))[١٦٤]، فإذًا الفاصل الزمني بين الآية المعطوف عليها وهذه الآية المعطوفة طويل مدته أكثر من خمسين يوما، وعليه فإن (ثم) تدل على الترتيب بمهلة، قال الرازي: ((أنا متمسكون بظاهر قوله تعالى: ثم تاب عليهم، وكلمة (ثم) للتراخي، فمقتضى هذا اللفظ تأخير قبول التوبة))[١٦٥]. وأما جانب الصنعة: فقد أهمل هذا التوجيه وجود (إذا) الشرطية في هذه الآية، وسيتضح ذلك في الوجوه التالية.

الثاني: أنها على أصلها أيضًا، وذلك إما على أن تكون (إذا) زائدة، ويكون المعنى: حتى ضاقت عليهم الأرض ثم تاب عليهم، قال محي الدين درويش عن هذه الآية: ((نتحدث عن إشكال ورد فيها، وهو جواب (إذا) وعطف (ثم تاب عليهم)، وقد أجاب العلماء عن ذلك بجوابين أولهما أن تكون (إذا) زائدة، فلا تحتاج إلى جواب ويستقيم المعنى. والثاني أن تكون (ثم) زائدة، فتكون جملة تاب عليهم هي الجواب ولا يمكن حل الإشكال إلا بافتراض زيادة إحداهما))[١٦٦]، أو تكون (إذا) للزمان فقط دون الشرط، وتكون بمعنى وقت، أي خلفوا إلى وقت ضاقت عليهم الأرض وأنفسهم ثم تاب عليهم، قال أبو حيان: ((ومن زَعَمَ أن (إذا) بعد (حتى) قد تجرد من الشرط وتبقى لمجرد الوقت، فلا تحتاج إلى جواب، بل تكون غاية للفعل الذي قبلها وهو قوله: خلفوا أي: خلفوا إلى هذا الوقت، ثم تاب عليهم ليتوبوا، ثم رجع

---

(١٦٤) الطبري: جامع البيان ٥٤٧/١٤.

(١٦٥) الرازي: مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، ١٦/ ١٦٦.

(١٦٦) درويش، محيي الدين بن أحمد (المتوفى: ١٤٠٣هـ): إعراب القرآن وبيانه، الناشر دار الإرشاد للشؤون الجامعية، بسورية، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ، ١٨٧/٤.

عليهم بالقبول والرحمة كرة أخرى ليستقيموا على توبتهم وينيبوا))[١٦٧]، أي يوجد من زعم هذا.

الثالث: أنها على أصلها كذلك في الدلالة على الترتيب بمهلة، وأن (إذا) غير زائدة، لكن جوابها محذوف والتقدير: حتى إذا ضاقت عليهم الأرض تنصلوا وتندموا ثم تاب الله عليهم، قال الباقولي: ((وقال أبو علي في قوله تعالى (ثم تاب عليهم): (ثم) زائدة، وقد يجوز أن يكون جواب (إذا) محذوفا، و(ثم تاب عليهم) معطوف على جملة الكلام، أي: حتى إذا ضاقت عليهم الأرض تنصلوا وتندموا، ثم تاب عليهم. و(إذا) بعد (حتى) للجزاء، وهي بمعنى: متى، أي: متى ضاقت عليهم الأرض))[١٦٨].

الرابع: أنها تدل على الترتيب في الذكر، وهي وما بعدها توكيد لجملة محذوفة واقعة جوابا لـ(إذا) والتقدير: حتى إذا ضاقت عليهم الأرض تاب عليهم ثم تاب عليهم ليتوبوا، ويكون الكلام شبيها بسابقه في ذكر التوبة مرتين، قال أبو حيان: ((و(إذا) إن كانت شرطية فجوابها محذوف تقديره: تاب عليهم، ويكون قوله: ثم تاب عليهم، نظير قوله: ثم تاب عليهم، بعد قوله لقد تاب الله على النبي الآية. ودعوى أن (ثم) زائدة وجواب إذا ما بعد (ثم) بعيد جدا، وغير ثابت من لسان العرب زيادة "ثُمّ"))[١٦٩].

ومثل الآية السابقة في زيادة (ثم) قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم

(١٦٧) أبو حيان: البحر المحيط، ٥/٥٢٠.

(١٦٨) الباقولي: إعراب القرآن المنسوب خطأ للزجاج ، ١/١٠٤، ١٠٥.

(١٦٩) أبو حيان: البحر المحيط، ٥/٥٢٠.

مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٢]، ففي هذه الآية أيضًا لم يذكر جواب (إذا) الواقعة بعد (حتى)، وقد وجهها بعض النحاة على زيادة (ثم) ليكون المعنى: حتى إذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم صرفكم عنهم، أي صرف المسلمين عن قتل الكافرين في موقعة أحد للغنيمة؛ مما مكن الكفار من ترتيب صفوفهم وهزيمة المسلمين، ووجهها آخرون على غير الزيادة مثل الآية السابقة، قال ابن عطية: ((اختلف النحاة في جواب (إذا)، فذهبت فرقة إلى أن الجواب قوله (تَنازَعْتُمْ)، والواو زائدة، وحكى المهدوي عن أبي علي أنه قال: الجواب قوله: صَرَفَكم و(ثم) زائدة))[١٧٠]. وقال القرطبي: ((وقال أبو علي: يجوز أن يكون الجواب" صرفكم عنهم"، (ثم) زائدة، والتقدير حتى إذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم صرفكم عنهم. وقد أنشد بعض النحويين في زيادتها قول الشاعر:

أَرَانِي إِذَا مَا بِتُّ بِتُّ عَلَى هَوًى فَثُمَّ إِذَا أَصْبَحْتُ أَصْبَحْتُ غَادِيَا

وجوز الأخفش أن تكون زائدة، كما في قوله تعالى: "حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم"))[١٧١]. وقال السمين الحلبي: (("إذا" على بابها من كونها شرطية، وفي جوابها حينئذ ثلاثة أوجه، أحدها: أنه (وتنازعتم)، قال الفراء: (وتكون الواو زائدة). والثاني: أنه (ثم صرفكم) و(ثم) زائدة، وهذا القولان ضعيفان جدا. والثالث وهو الصحيح: أنه محذوف، واختلفت عبارتهم في تقديره، فقدره ابن عطية: (انهزمتم)، وقدره الزمخشري: (منعكم نصره)، وقدره أبو البقاء: (بان لكم أمركم) ...، قوله: (ثم صرفكم) عطف على ما قبله، والجملتان من قوله: (منكم من يريد الدنيا ومنكم

(١٧٠) ابن عطية: المحرر الوجيز، ٥٢٤/١.

(١٧١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٢٣٦/٤.

من يريد الآخرة) اعتراض بين المتعاطفين. وقال أبو البقاء: (ثم صرفكم) معطوف على الفعل المحذوف، يعني الذي قدره جوابا للشرط))[١٧٢].

وخلاصة هذه المسألة فإن القول بزيادة (ثم) عزيز، لعدم اطراده في كلام العرب، وكذا القول بزيادة (إذا)، ولعل الراجح ما ذهب إليه أبو علي الفارسي من جعل جواب (إذا) مقدرًا، وعليه تكون (ثم) على أصلها في الدلالة على التراخي.

الخاتمة

قد توصل هذا البحث إلى أن (ثم) في القرآن الكريم عندما تكون عاطفة تؤدي المعاني التالية:

١- التراخي في الزمان، أي أن ما بعدها يحدث بعد ما قبلها، وهذا معناه المطرد عند جمهور النحاة، لكن هذا التراخي تراوح في القرآن ما بين لحظة يسيرة لا تتعدى الدقيقة وما بين آلاف السنين.

٢- التراخي في المكان، أي أن ما بعدها مكانه يبتعد عن مكان ما قبلها من حيث المسافة. وهذا المعنى لم يقع في القرآن إلا في موضع واحد وعلى رأي المجسمة.

٣- التراخي في الرتبة، وهو أن ما بعدها أعظم درجة مما قبلها، وفي هذه الحالة الترتيب الزمني غير لازم، فيجوز فيما بعدها أن يقع قبل ما قبلها أو معه أو بعده.

٤- الاستبعاد، وهو أن ما بعدها مستبعد حدوثه عقلياً لتوفر المعطيات التي تمنع حدوثه، فحدوثه أمر غريب مستبد، وأول من قال بهذا المعنى الزمخشري، وقد عبر عنه ابن عطية بالتوبيخ، بينما عبر عنه القرطبي بالتعجيب.

---

(١٧٢) السمين الحلبي: الدر المصون، ٤٣٧/٣.

٥- الاستمرار، وهو أن يحدث ما بعدها مع ما قبلها في زمان واحد، لكن ما بعدها يستمر بعد الحدوث إلى فترة طويلة قد تصل سنين عديدة.

٦- التقديم، أي أن ما بعدها يقع قبل ما قبلها.

٧- مطلق الجمع، وهو أن ما بعدها يحصل مع ما قبلها في آن واحد من دون أن تكون له ميزة عليه، ومعناها في ذلك مثل معنى واو العطف.

وكما توصل البحث أيضاً إلى أن (ثم) ترد أحياناً في القرآن غير دالة على العطف، وذلك عندما تدل على الاستئناف، أو تكون بمعنى (هنالك)، أو تكون زائدة.

وهذه المعاني جميعها فيها خلاف بين المفسرين، وقد حرص البحث على إيراد هذا الخلاف، وختم كل مسألة من مسائله بخاتمة صغيرة رجح فيها ما يخدم المعنى القرآني ولا يتعارض مع اللغة. وقد اكتفى البحث بنتائج هذه الخواتيم في مواضعها ولم يكررها مرة أخرى في هذه الخاتمة النهائية.

المراجع

[١] ابن المنير الإسكندري (ت: ٦٨٣): *الانتصاف من الكشاف*، الكتاب مذيل بحاشية الكشاف طبعة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.

[٢] ابن عادل، سراج الدين عمر بن علي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٥هـ): *اللباب في علوم الكتاب*، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

[٣] ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ): *التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»*، طبعة الدار التونسية للنشر بتونس١٩٨٤هـ.

[٤] ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢هـ): *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر دار الكتب العلمية ببيروت.

[٥] ابن هشام، جمال الدين عبد الله بن يوسف الأنصاري (المتوفى: ٧٦١هـ): *مغني اللبيب عن كتب الأعاريب*، تحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، طبعة دار الفكر بيروت، الطبعة السادسة ١٩٨٥م.

[٦] أبو الشيخ الأصبهاني، عبد الله بن محمد (المتوفى: ٣٦٩هـ): *العظمة*، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس، الناشر دار العاصمة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

[٧] أبو حيان محمد بن يوسف (المتوفى: ٧٤٥هـ): *البحر المحيط في التفسير*، تحقيق صدقي محمد جميل، طبعة دار الفكر ببيروت ١٤٢٠هـ.

[٨] الأخفش، أبو الحسن المجاشعي المعروف بالأخفش الأوسط المتوفى: ٢١٥هـ): *معاني القرآن*، تحقيق الدكتورة هدى محمود قراعة، طبعة مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

[٩] الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله (المتوفى: ١٢٧٠هـ): *روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني*، تحقيق علي عبد البارئ عطية، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى.

[١٠] الباقولي، علي بن الحسين بن علي الأَصْفهاني (المتوفى: نحو ٥٤٣هـ): *إعراب القرآن المنسوب خطأ للزجاج*، تحقيق ودراسة إبراهيم الإبياري، الناشر: دار الكتاب المصري بالقاهرة ودار الكتب اللبنانية ببيروت، الطبعة: الرابعة١٤٢٠هـ.

[١١] البخاري، محمد بن إسماعيل (المتوفى: ٢٥٦هـ): *البخاري*، تحقيق محمد زهير الناصر، طبعة دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

[١٢] البيضاوي عبد الله بن عمر الشيرازي (المتوفى: ٦٨٥هـ): *أنوار التنزيل وأسرار التأويل*، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر دار إحياء التراث العربي ببيروت.

[١٣] تاج القراء، محمود بن حمزة بن نصر، (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ): *غرائب التفسير وعجائب التأويل*، طبعة دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة، ومؤسسة علوم القرآن ببيروت.

[١٤] الترمذي، محمد بن عيسى(المتوفى: ٢٧٩هـ): *سنن الترمذي*، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الثانية ١٩٧٥م.

[١٥] الثعلبي، أحمد بن محمد، (المتوفى: ٤٢٧هـ): *الكشف والبيان عن تفسير القرآن*، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

[١٦] دراز، محمد بن عبد الله (المتوفى : ١٣٧٧هـ): *النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم*، اعتنى به أحمد مصطفى فضلية، قدم له أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، الناشر دار القلم للنشر والتوزيع، طبعة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

[١٧] درويش، محيي الدين بن أحمد (المتوفى: ١٤٠٣هـ): *إعراب القرآن وبيانه*، الناشر دار الإرشاد للشئون الجامعية، بسورية، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ.

[١٨] الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر التميمي المتوفي: (٦٠٦هـ): *مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)*، طبعة دار التراث العربي ببيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.

[١٩] الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري (المتوفى: ٣١١هـ): *معاني القرآن وإعرابه*، طبعة عالم الكتب ببيروت، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

[٢٠] الزركشي، محمد بن عبد الله (المتوفى: ٧٩٤هـ): *البرهان في علوم القرآن*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركاؤه، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م.

[٢١] الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو (المتوفى: ٥٣٨هـ): *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*، طبعة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.

[٢٢] السمين الحلبي، أحمد بن يوسف (المتوفى: ٧٥٦هـ) :*الدر المصون في علوم الكتاب المكنون*، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، طبعة دار القلم بدمشق.

[٢٣] سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر (المتوفى: ١٨٠هـ) : *الكتاب*، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

[٢٤] السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى: ٩١١هـ): *الدر المنثور في التفسير بالمأثور*، طبعة دار الفكر ببيروت.

[٢٥] الطبري، محمد بن جرير (المتوفى: ٢١٠هـ): *جامع البيان في تأويل القرآن*، تحقيق أحمد محمد شاكر، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى.

[٢٦] العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (المتوفى: ٦١٦هـ): *التبيان في إعراب القرآن*، تحقيق علي محمد البجاوي، الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.

[٢٧] الفراء، يحيى بن زياد الديلمي (المتوفى: ٢٠٧هـ): *معاني القرآن*، تحقق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر الدار المصرية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولى.

[٢٨] القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (المتوفى: ٦٧١هـ): *الجامع لأحكام القرآن*، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفش، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

[٢٩] القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (المتوفى: ٤٦٥هـ): *لطائف الإشارات*، تحقيق إبراهيم البسيوني، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر، الطبعة الثالثة.

[٣٠] المالقي، أحمد بن عبد النور (المتوفى: ٧٠٢هـ): *رصف المباني في شرح حروف المعاني*، تحقيق أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

[٣١] الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي (المتوفى: ٤٥٠هـ): *النكت والعيون*، تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت.

[٣٢] المرادي، الحسن بن قاسم (المتوفى: ٧٤٩هـ): *الجنى الداني في حروف المعاني*، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل طبعة المكتبة العربية بحلب، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ_١٩٧٣م.

[٣٣] مقاتل بن سليمان الأزدي البلخي (المتوفى: ١٥٠هـ): *تفسير مقاتل*، تحقيق عبد الله محمود شحاته، طبعة دار إحياء التراث ببيروت، الطبعة الأولى١٤٢٣هـ.

[٣٤] مكي بن أبي طالب، (المتوفى: ٤٢٧هـ): *الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره*، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي- جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى١٤٢٩هـ.

[٣٥] النحاس أحمد بن محمد (المتوفى: ٣٣٨هـ): *معاني القرآن*، تحقيق محمد علي الصابوني، الناشر جامعة أم القرى بمكة المكرمة، الطبعة الأولى.

[٣٦] النسفي، عبد الله بن أحمد (المتوفى: ٧١٠هـ): *مدارك التنزيل وحقائق التأويل*، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨م.

[٣٧] النيسابوري، الحسن بن محمد القمي (المتوفى: ٨٥٠هـ): *غرائب القرآن ورغائب الفرقان*، تحقيق الشيخ زكريا عميرات، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى١٤١٦هـ.